تأملات إيمانية في سورة

يوسف عليه السلام

فضيلة الشيخ الدكتور

ياسر برهامي

دار الإيمان
اسكندرية

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي

تأملات إيمانية
في سورة
يوسف عليه السلام

بقلم

فضيلة الشيخ الدكتور

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والفيديو
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٢٢٠٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

جميع الحقوق محفوظة

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع ٥٠٨١ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى
977-331-275-5

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت : ٥٤٤٦٤٩٦

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ⑰ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد ... فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

سورة يوسف هذه المعجزة الخالدة، والدلالة القاطعة من دلائل نبوة محمد ﷺ، طالما وقفت القلوب والعقول مبهورة أمام ما تضمنّه سياقها العظيم من أنواع النور من الخبر الصادق، والقصص الحسن، ومعاني الإيمان الصافي، والعقيدة النقية، وتعريف العباد بأسماء ربهم، وصفاته، وأفعاله، وتعليق قلوبهم بها، والتفصيل الدقيق لما يحتاج إليه المكلفون، والإعراض عن ما لا فائدة لهم في

ذكره، وتحبيب النفوس في المُثل العليا في شخص أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه ، وتبيين الأحكام والحلال والحرام والأخلاق، وكشف أغوار الشخصيات التي تجد أمثالها متكررة في كل زمانٍ ومكانٍ، فتعرف غور النفس الإنسانية، وما يعتريها من أمراض، وكيفية معالجتها، والأسلوب العليّ الحييّ النقيّ الذي يصف أحرج المواقف التي تتسلّل من خلالها الشياطين في قصص البشرلإفساد القلوب وإلقاء بذر الحرام فيها، يصفها بأروع وأنصع وأنظف الكلمات التي تلقي بذور الإيمان والطاعة، وتسمو بالقلب ليرتفع عن علائق الطين ليكون في النديّ الأعلى بدلاً من الحضيض الأسفل، وغير ذلك من أنواع الهدى والنور يعجز اللسان والقلم عن وصف ما يقع في القلب منها، فضلاً عما تتفاوت فيه القلوب في إدراكاتها من شخصٍ لآخرٍ، بل ومن قراءةٍ لأخرى، ومن مرةٍ لأخرى لنفس الشخص؛ فضلاً عما أحاط الله به من العلوم التي تضمّنتها، والمعاني التي احتوتها، فسبحان من أحاط بكل شئٍ علماً، ولا يحيطون به علماً .

والحمد لله الذي امتنّ علينا ببعثة رسوله ﷺ، وإنزال القرآن عليه، ومَنْحِه هذه السورة الكريمة، فَصَلِّ اللهم على من اجتبيته واصطفيته من خلقك لتنزل على قلبه هذا الكتاب، وتفيض عليه الحكمة، وسَلِّمْ تسليماً كثيراً . . .

وبعد . . .

فهذه محاولة لتدبّر ما في هذه السورة العظيمة – وكل القرآن عظيم – من المعاني، بعد الوقوف على تفسيرها، وبيان حقائق الإيمان، وتزكية النفس من مواقف القصة، بعيداً عمّا عَلَقَ بكثير من التفاسير في هذه المواقف من الآثار الإسرائيلية التي تهتم دائماً بالتفاصيل غير المفيدة، فتأخذ القلب بعيداً عن طريقة القرآن المبهرة المضيئة المنيرة .

أكتبها تذكارًا لنفسي عساها تستيقظ في فترات غفلتها على منة الله في أوقات التنبيه، وتذكرةً لإخواني وأحبائي المسلمين عسى أن ندرك شيئًا من عظمة القرآن وطريقته الكريمة، فنزداد حبًا وشوقًا لمن أنزله سبحانه، وحرصًا على تلاوته وتدبره، ونزداد حبًا لرسول الله ﷺ الذي خَصَّهُ الله بهذه الرحمة والفضل العظيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهو يخلق ما يشاء ويختار، فاختار قلب محمد ﷺ ليملأه بالنور المبين، ويفيض على من اجتباهم من عباده المؤمنين من آثار هذا النور، ونزداد حبًا لأنبياء اللهصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين خصوصًا في هذه السورة، إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف صلى الله عليهم وسلم، وشوقًا للحياة معهم، في الدنيا بذكر سيرتهم، ونسأل الله أن يرزقنا مرافقتهم في الآخرة بحبنا لهم، وإن لم نعمل عملهم أو نتصف بصفاتهم .

وأكتبها كذلك تسليةً لنفسي ولأهلي وأولادي في منحة المحنة التي أصابتنا، وتبشيرًا لنا وللمسلمين جميعًا بقرب النصرة والفرج والتمكين، فإن هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ وهو بمكة والإسلام محاصر حبيس بها، والمسلمون مضطهدون تنالهم أنواع الأذى، والظلام دامس شديد، فنزلت السورة مبشرةً بقرب الفرج والنصر والتمكين ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ .

[يوسف : ١١٠] .

وأسأله سبحانه أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، وصالحًا على وفق شرعه المنزل على خير خلقه محمد ﷺ، وأن يجعله كذلك من أسباب الثبات على الدين في مواجهة الفتن، فاللهم يا مُقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك، ويا مُصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك، اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك،

ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، اللهم علِّمنا منه ما جهلنا، وذكِّرنا منه ما نُسِّينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وآناء النهار على الوجه الذي يرضيك عنا، ونسألك اللهم رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار......آمين.

كتبه
ياسر برهامي
حفظه الله

تفسير البسملة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

اتفق العلماء على أن البسملة بعض آية من سورة النمل، واختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة (أي : فهي لا تعد من آياتها)؟ أم هي آية من كل سورة (أي : فهي إحدى آياتها) ؟ أو أنها بعض آية من كل سورة (أي : تكون الآية الأولى في كل سورة هي البسملة وما يليها) ؟ أم أنها آية من الفاتحة دون غيرها ؟ أو أنها كتبت للفصل لا أنها آية ؟ وأصح الأقوال أنها إحدى آيات الفاتحة، وآية مستقلة في أول كل سورة للحديث الذي رواه ابن خزيمة وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا : « **إذا قرأتم فاتحة الكتاب فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها إحدى آياتها** »[1] صححه الألباني، فهو دليل على أنها إحدى آيات الفاتحة، أمّا أنها آية مستقلة في أول كل سورة، فللحديث الذي رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ « **كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم** »[2]، وللحديث الذي رواه مسلم وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسمًا، إمّ قال لهم وإمّا قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **إنه أنزلت علي آنفاً سورة**»، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر حتى ختمها . . . » الحديث[3]، وللحديث الذي رواه أهل السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « **إن سورةً في القرآن ثلاثين آية، شفعت لصاحبها حتى غُفر له :**

---

(١) **صحيح** : رواه الدارقطني (٣٦) الصلاة، والبيهقي (٢٢١٩) الصلاة كلاهما عن أبي هريرة بلفظ « **إذا** قرأتم الحمد لله ... » الحديث ، وابن خزيمة (٤٩٣) الصلاة عن أم سلمة بمعناه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩) .

(٢) **صحيح** : رواه أبو داود (٧٨٨) الصلاة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦٤) .

(٣) رواه مسلم (٤٠٠) الصلاة ، وأبو داود (٤٧٤٧) السنة واللفظ له ، والنسائي (٩٠٤) الافتتاح ، وأحمد (١٢٠١٥) في مسند أنس بن مالك .

تبارك الذي بيده الملك »(١)، وهي ثلاثون آية مستقلة دون عدّ بسم الله الرحمن الرحيم، فهذه الأحاديث ترجح ما ذكرنا من أنها آية مستقلة في أول كل سورة، وأنها إحدى آيات الفاتحة، والله أعلم .

والباء في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ متعلقة بمبتدأ مؤخر محذوف تقديره (ابتدائي)، أو بفعل محذوف تقديره (أبدأ)، أي : ابتدائي بسم الله أو أبدأ باسمه أي : بذكر اسمه عز وجل استعانةً وتبركًا .

واسم ﴿ اللَّهِ ﴾ بمعنى : الإله المعبود وحده لا شريك له على أصح قولي العلماء مشتق من الإلاهة، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾ [الأنعام:٣]، مثل قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤]، فينبغي على العبد حين يذكر اسم ﴿ اللَّهِ ﴾ أن يستحضر القضية الأولى في حياته بل في الوجود كله، وهي إفراد الله بالعبادة كما قال عز وجل لموسى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ [طه : ١٤] .

واسم ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ الاسم الدال على صفة الرحمة العامة من صفة الذات، أي التي هي من لوازم ذاته عز وجل ليست متعلقة بمشيئته، بل كل من سواه مرحوم بهذه الرحمة بمقتضى كونه مخلوقًا من مخلوقاته، بصرف النظر عن كونه مطيعًا أو عاصيًا، مؤمنًا أو كافرًا، فهذه الرحمة العامة وسعت كل شئ سواه عز وجل، وينبغي على العبد أن يستحضر عند تلاوته لاسمه ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ عز وجل آثار رحمة الله بخلقه جميعًا، وكيف « **أن رحمةً واحدة من مئة رحمة أنزلها الله عز وجل، بها تتراحم الخلائق من أولهم إلى آخرهم، وبها ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه** »(٢) ،وتأمل ما في قلوب البشر من التراحم بين

---

(١) **صحيح** : رواه أبو داود (١١٩٢) الصلاة ، والترمذي (٢٨١٦) فضائل القرآن ، وابن ماجة (٣٧٨٦) الأدب ، وأحمد (٧٩٦٢) ، وابن حبان (٧٨٧) ، والحاكم (٢٠٧٥) ، عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩١) .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخاري (٦٠٠٠) الأدب ، ومسلم (٢٧٥٢) التوبة .

الأمهات والآباء والأولاد، وبين الأزواج والزوجات وغيرهم، ثم ما في قلوب سائر الحيوانات لأولادها، وانظر إلى آثار رحمة الله خلقه بالمطر، وما ينزل لهم من الأرزاق والعطايا، والمعافاة في الأبدان والأهل والأموال، وكل هذه من هذه الرحمة الواحدة المخلوقة، وادّخر عز وجل تسعةً وتسعين رحمةً ليوم القيامة، فعند ذلك يرجو المؤمن رحمة ربه رجاءً عظيمًا، ويناله من رحمة الله فوق ما يخطر بباله، ويحضرني الآن رؤيا رأيتها أن ابني محمداً قد أصابه جرح، فجعل يبكي فجعلت أبكي لبكائه رحمةً له، فقلت في نفسي في المنام : إذا كنت أرحم ابني هذه الرحمة، فكيف برحمة الله لعباده المؤمنين، « **وهو أرحم بعباده من الأم بولدها** »(١)، لا بد أنها تكون رحمة عظيمةً جداً فوق ما يخطر ببالنا، فالحمد لله.

واسمه ﴿ **الرَّحِيمِ** ﴾ الاسم الدال على صفة الفعل فهو يختص بمن شاء الله رحمته، كما قال عز و جل: ﴿ **يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [آل عمران : ٧٤]، وقال : ﴿ **وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٤٣]، وقال ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ...** ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٦]، وأعظم رحمة خصَّ الله بها عباده المؤمنين هدايتهم للإسلام، وشرح صدورهم له، وتوفيقهم للتقرب إليه بطاعته، وما يفيض عليهم من نعيم قربه وحبه، الذي يعرفهم به جنس النعيم الذي أعده لهم في جنته، ثم ما يخص به سبحانه من شاء بما شاء من أنواع الرحمة التي يتفاوت الخلق فيها أعظم تفاوت، و « **الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** » (٢) فاللهم ارحمنا رحمةً تغننا بها عن رحمة من سواك.

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري(٥٩٩٩) الأدب ، ومسلم(٢٧٥٤) التوبة .

(٢) صحيح : رواه أبو داود(٤٩٤١) الأدب ، والترمذي(١٩٢٤) ، وأحمد(٦٤٩٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٥٢٢) .

غير الشرعية، بخلاف حيلة يوسف لأخذ أخيه فإنها كانت لإنقاذه مما فعله إخوته به، فهم قد امتلأت قلوبهم حقداً وحسداً عليه حتى لو كان فيه إيلام يعقوب، إلا أنه إذا علم أن هذه الحيلة إنما هي لمصلحة بنيامين، وهي تدبير الله وتوفيقه، لرضي بذلك قطعاً، وقد كان .

الغرض المقصود أننا لسنا بحاجة إلى هذه القصص، فإن هذه التهمة التي اتهمها إخوة يوسف تهمة باطلة على أي حال، وغير مستغرب منهم تلفيق تهمة باطلة، سواء كانت مبنية على واقعة معينة حرّفوها وأولوها على غير وجهها، أو كانت مختلقة من أصلها، وليس مثل هذا بمستبعد عن مَن ملأ الحسد قلبه، فإنه إن لم يجد ما يتنقص به محسوده اختلق واخترع ما يتنقصه به، فهم يريدون عيب يوسف عليه السلام بما ليس فيه وبما لا يليق به حتى في طفولته، فإن سجايا الأنبياء وصفاتهم الجبلية التي فطرهم الله عليها هي أكمل السجايا والصفات، والسرقة نوع من الخيانة تنفر النفوس منها، ولو وقعت من إنسان حال طفولته وعرفت عنه، ولذا كانت مقالة إخوة يوسف عيباً وطعناً فيه يستشفى الحسود بها غله وحقده، حتى ولو كانت الواقعة المدعاة حال الطفولة، فتكون مسبة له مر الدهر، فينزه عنها الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – أجمعين .

وتأمل كيف كانت محاولتهم التنقيص من يوسف سبباً لنقصهم هم، فهم يواجهون يوسف بالطعن فيه جاهلين أن العزيز هو يوسف عليه السلام، فأَسَرَّ يوسف في نفسه قوله عنهم : ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ، فكل من رام تنقيص غيره بالباطل واتهامه بما ليس فيه رغبةً في وجاهة عند ذي السلطان أو عند أحد من الخلق، فإن عاقبة مكره السيء تعود عليه، فيحصل له النقص عند ذي السلطان وعند الناس جميعاً، ووالله إن هذه الكلمة التي قالوها عن يوسف عليه السلام وأخيه، لتجعل قلوب المؤمنين في كل زمانٍ ومكانٍ تشعر بنقيصتهم وسوء

مقالتهم وفساد قلوبهم تجاه أخويهم اللذين هما أفضل منهم بلا شك، وهكذا كل مغتاب نمام، فإنه بغيبته ونميمته لمن يكرهه إنما يرفع قدره ويضع من قدر نفسه، ويُبَغِّضُها للناس ثمرةً ونتيجةً لعمله الذي يبغضه الله -عز وجل-، بل كل سالك لغرض من أغراضه سبيلاً خلاف سبيل الحق، فإنه يحصل له في عاقبة الأمر عكس ما قصد، فهم حين أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم بإبعاد يوسف عليه السلام عنه، ما ازدادوا من أبيهم إلا بعداً، وما ازداد يوسف إلا حبًا .

وأتعجب في نفسي ماذا يكون شعور وظن إخوة يوسف لو علموا أن الذي يعنون بالسرقة من قبل هو هذا الملك العزيز أمامهم ؟ كيف يكون خجلهم وفضيحتهم ؟ ثم لو كان صدقًا فما الحاجة في أن يذكروا أمام ملك غريب منهم فضائح إخوتهم، كأن عائلتهم عريقة في السرقة ؟ وهل هذا إلا فضيحة لأنفسهم من حيث أرادوا تبرأتها ؟ فكأنهم يثبتون الجريمة على أخيهم ويؤكدون أنها صفة لازمة في الأسرة، ماذا يصنع الحقد بأهله ؟! وماذا يدمر الحسد من صورة صاحبه ؟! وكما قيل :

لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله

ثم تأمل حلم يوسف عليه السلام المظلوم أولاً والمظلوم ثانيًا، الذي يملك أن ينتقم وينتصر ويواجه المبطل بباطله، فيحلم ويكظم غيظه، ولا يزيد على أن يحدّث نفسه بمقالة يقول : ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي : مما وصفتم به أخاكم كذبًا وزورًا، نعم والله، فإن من سرق أخاه من أبيه النبي وباعه رقيقًا شر ممن سرق صنمًا أو منطقةً أو غير ذلك لو كان شيء من ذلك .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهذا الإسلوب القرآني الرائع في رد العلم إلى الله فيما لا فائدة من معرفته، فالله أعلم بحقيقة ما وقع من يوسف مما جعل إخوته يصفونه بهذا الوصف الباطل، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ثم تكون نهاية الأمر

عند يوسف بعد الحلم وكظم الغيظ، العفو والصفح والمغفرة بل والدعاء بالمغفرة والتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته أن يفعل: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ما أحلمه، وما أكرمه، وما أجمله خَلقًا وخُلقًا، الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – .

وقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: الكلمة التي قالها في نفسه سرّها ولم يظهرها، وهي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو من باب ذكر الضمير قبل الاسم الذي يعود عليه، قال العوفي عن ابن عباس ﵄: أسر في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: تذكرون.

* * *

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾ .

شرع إخوة يوسف عليه السلام يستعطفونه ويترققون له لكي يطلق أخاهم، ولو يأخذ أحدهم مكانه، فهم يفضلون أن يكون أحدهم رقيقًا على أن يرجعوا إلى أبيهم بغير أخيهم ويواجهوا سخطه وغضبه عليهم، فسبحان الله، مدبّر الأمر، كيف جعل وجه يعقوب لأبنائه وهم الذين يسعون لأن يخلو لهم – أشدّ عليهم وأقسى من الرق وما ذاك –، وهو أبوهم الرحيم الرفيق إلا بسبب أعمالهم وخصالهم السيئة، وإلا فأنبياء الله أرحم خلق الله بخلقه، فكيف بأبنائهم ؟! ولكنها عاقبة المعصية وشؤمها .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ أي : وهو يحبه حبًا شديدًا، ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعجبني كثيرًا أن كل خطابات أخوة يوسف عليه السلام له بـ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ ، فعلاً والله أعزه الله عليهم أعظم إعزاز، نعم هي وظيفته ولقبه، ولكنه لقب خاص اختاره الله له، فالمعتاد في مثل منصبه لفظ الوزارة أو الملك أو غير ذلك من ألفاظ الرياسة، ولم يذكر العزيز إلا في هذا المنصب في هذا الزمان، وهو اسم ووصف يستحقه يوسف عليه السلام ولله العزة جميعًا، يعز بها من يشاء ويذل من يشاء، أعز من شاء بطاعته وأذل من شاء بمعصيته، وفي قولهم : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ دليلٌ على ما كان عليه يوسف عليه السلام من الخلق الحسن والإحسان إلى الناس، فإخوته – وهم لا يعرفونه بل وهم يغتابونه أمامه من حيث لا يشعرون – لا يملكون إلا أن يشهدوا بما يرون من إحسانه، فكل من يعامله يراه من المحسنين، صاحباه في السجن والنسوة شهدن

بأنهن ما علمن عليه من سوء وإخوته، ولقد لمس الملك وأهل مصر جميعًا من إحسانه وكرمه ما نفعهم الله به، وهذه الصفة من أهم صفات الداعي إلى الله تعالى، يلزمه أن يحافظ عليها، بل ويتكلفها ليفتح الله له بها قلوب الناس .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ ولم يقل إلا من سرق متاعنا حفاظًا على التعريض وعدم الكذب، فهو في الحقيقة لم يسرق ولكنهم وجدوا متاعهم عنده، ولو أخذ غيره لكان ظالمًا فعلاً، لأنه إنما يأخذ أخاه ليكرمه ويبعده عن جو الحقد والحسد والبؤس الذي يحيطه به إخوته، ﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولو أخذ واحداً منهم بتهمة السرقة لكان معاقبًا له على فعل لم يفعله، وما كان ليكرمه كإكرامه لأخيه الذي يستحق ذلك، وفي استعاذته عليه السلام بالله من الظلم، دليلٌ على حاجة الحاكم إلى اللجأ إلى الله والدعاء ليجبره من الأبرياء، وهذه الحاجة حاجةٌ شديدةٌ ماسةٌ، لأن الحكم له صولة وجاه يُنْسِي أكثر الحكام ويعميهم، ولا يشعرهم بخطر الكلمة الواحدة منهم التي قد يتعذب بسببها بريء زمنًا من الدهر، وكم شقيت أمم وشعوب بظلم حكامهم، وهم في غفلتهم وسكرتهم يعمهون ولا يشعرون، وسبب ذلك أنهم ما لجأوا إلى الله ليعيذهم من الظلم، فإن الاستعاذة بالله من الظلم من أعظم أسباب النجاة والتحصين من كيد الشيطان، ومكره أعاذنا الله من الظلم ووفقنا للعدل، ونسأله أن لا يسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا .

الندم واستشعار الخطيئة

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

بذل إخوة يوسف عليه السلام جهداً كبيراً، وألحوا على العزيز يوسف عليه السلام إلحاحًا شديداً في أن يطلق أخاهم، دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ ﴾، فلم يكن طلبًا مجرداً، بل إلحاحًا وجهداً لم يصلوا إلى غايتهم منهم فيأسوا منه، وهذا الجهد كان لأمرين :

الأول : كراهيتهم أن يعودوا لأبيهم من غير أخيهم .

والثاني : الموثق من الله الذي أخذه أبوهم عليهم، فقد كان العهد عظيمًا في نفوسهم، فبعد يأسهم من العزيز أن يرد عليهم أخاهم ولو ببدل ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ أي : انفردوا عن الناس يتناجون ويتباحثون سرًا فيما بينهم في شأنهم، وماذا يصنعون في هذا المصيبة التي نزلت بهم، ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ قال ابن كثير : « وهو روبيل، وقيل : يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر حين هموا بقتله » .

تجد هذا الأخ عنده نزعة من الخير وتقليلاً للشر، إن صح أنه هو الذي كان نصحهم بعدم قتله، وهذه النزعة ظهرت جليًا في هذا الموقف، فهو يذكرهم بالعهد والميثاق مع الله – سبحانه – الذي قد أخذه أبوهم عليهم برد بنيامين إلا

أن يحاط بهم، والتذكر والتذكير بعهد الله دليلُ المراقبة والمحاسبة للنفس وإلا فالفاجر لا يعبأ بعهوده ومواثيقه، وقوله : ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ هنا بدأ الندم يظهر في قلوبهم ويحل على ألسنتهم بعد السنين الطوال، وهذا أول موضع يعترفون أو يعترف أحدهم ويقره الباقون بالتفريط في حق يوسف عليه السلام، قد منّاهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم حين مكروا بيوسف عليه السلام أن يكونوا من بعده قومًا صالحين وأن يتوبوا، فما تابوا ولا صلحوا إلا بعد هذه السنين، فالعبد لا يملك قلبه، والله يحول بين المرء وقلبه، وإنما يُرزق الإنابة والتوبة مع استشعار المراقبة لله، والعلاقة الخاصة والمسؤلية بين يديه، ومع ذكر الله – سبحانه – ومعرفة أسمائه وصفاته، فتأمل كلامهم من أول السورة ما ذكروا صفة الرب – سبحانه – إلا في هذا الموضع حيث قال كبيرهم : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

سبحان الله ! ما استشعروا أن الله هو الذي يحكم وأنه خير الحاكمين إلا بعد هذا العمر الطويل حين بدأوا يعاملون ربهم، إن أعظم نعمة ينعم الله بها على عبده أن يملأ قلبه بمعرفته، وأن يشهد قلبه أسماءه وصفاته وأفعاله، وأن يأخذ بناصيته إليه ويريه ملكوت السماوات والأرض ويجعله من الموقنين، وينقذه من ورطات الغفلة عن الله وعن صفاته وأفعاله وملكه وحمده، هذه الغفلة التي يعيش فيها أكثر الناس فلا يدرون كم يجلبون على أنفسهم من الشقاء بها، ويعانون من أنواع التعاسة والبلاء والمصائب والمحن بسببها، مع أن معرفة الله ثم محبته والتوجه إليه سبيل قصد مستقيم سهل، أقصر الطرق إلى السعادة، وأيسر السبل إلى الغاية التي خلق من أجلها الإنسان .

وتأمل كيف كانوا طول عمرهم في تعب الحسد ونكد الحقد حتى ذكروا الله وصفاته وأسماءه وشهدوا حكمه وأمره، فبدأ الفرج يلوح لهم وبدأ الخير الذي أوله الندم واستشعار الخطيئة ومشاهدة الجناية يدب إلى قلوبهم، وإن كان الفرج

دائمًا يأتي في صورة بلاء يبلغ مداه، وضيق يبلغ غايته، يأتي بعده السعة واليسر، فتأمل أن يوم الفرج للُوط عليه السلام كان يومًا كان في أوله : ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : ٧٧]، وكان يوم نصر الله نبيه إبراهيم عليه السلام هو يوم إلقائه في النار وهو الذي كانوا يعدون له عدة، وكانت لحظة النجاة لموسى عليه السلام يوم فلق البحر هي لحظة ﴿ تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ [الشعراء : ٦١]، وقول أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] .

ويوم نصر الله نبيه محمد ﷺ نصره المؤزر بلا عمل أحد من الناس يوم وصل الكفار إلى الغار، فدائمًا لحظة الفرج تسبقها أشد لحظات الشدة، فإذا وجدت الأمور تضيق وتصل إلى الغاية، مع وجود إنابة وتوبة واستحضار لأسماء الله وصفاته وحكمه وحمده ومعاملة خاصة معه وشهود معيته، فأبشر فإنها لحظات الفرج القريب إن شاء الله .

كما قال رسول الله ﷺ : « **واعلم أن الفرج مع الكرب وأن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسراً** » (١)، فاللهم فرج كربات أمتي، وانصرنا في مشارق الأرض ومغاربها، ويسر لنا أمرنا برحمة واسعة من عندك تغنينا بها عن رحمة من سواك، وانصر المسلمين في العراق وفلسطين وأفغانستان والشيشان والهند وكشمير وفي كل مكان يارب العالمين .

وقول كبيرهم : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أي : أرض مصر لن أغادرها ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ أي : يمكنني من أخذ أخي، فهو يتوكل على الله ويرجوه أن يحكم له بتحرير أخيه ورده إلى أبيه وفاء بالموثق، ويتوسل إلى الله سبحانه باسمه – عز وجل – ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

ثم أمرهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه بما حدث : ﴿ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾، قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق، وقال ابن زيد : ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئًا إنما سألنا ما

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٢٨٠٠) مسند بني هاشم، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦) .

جزاء السارق، يعنون بذلك الاعتذار والتنصل لأن ظاهر الأمر أنهم السبب في أخذ أخيهم، رغم أن ذلك ليس هو جزاء السارق في حكم الملك، فهم يعتذرون إلى أبيهم بأنهم حين التزموا للعزيز بأن جزاء من وجد في رحله فهو جزاؤه، ما كانوا حافظين للغيب، أي: عالمين به، وهو أن أخاهم قد سرق شيئًا، فهم ما شهدوا إلا بما علموا من شريعتهم أن جزاء السارق أنه يدفع إلى المسروق منه، أي: ولو كانوا يعلمون الغيب وأن أخاهم قد سرق، لما التزموا بذلك، والله أعلم .

وقوله عنهم : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ يعنون : مصر، هذا هو الظاهر، وهو قول قتادة، ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي : القافلة التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تأكيد لصدقهم بـ ﴿ إِنَّ ﴾ المؤكدة ولام التوكيد، ولكن ما يغني التأكيد عن من جُرِّب عليه الكذب قبل ذلك، وما يغني السؤال عن أمانة من عُلِمَ عنه خيانة الأمانة قبل ذلك، إن اليقين المعلوم في النفس أبلغ من السؤال، خصوصًا السؤال الذي لا يمكن، فأنّى ليعقوب أن يسأل أهل مصر ؟ ولكنهم لا يدرون ماذا يصنعون، وكيف يقنعون آباهم بأن هذه المصيبة الهائلة الجديدة لا صنع لهم فيها، وأنهم ما فرطوا هذه المرة ؟! .

لكنه الجزاء العدل من الله للكاذب الخائن الفاجر، أن يُرد خبره كله ولو صَدَق في بعضه، ويُخوَّن في شأنه كله ولو كان أمينًا في بعضه، ويُعامل كفاجر في أمره كله ولو عدل في بعضه، وفي هذا حجّة لأهل الحديث في رد حديث من عرف بالكذب مع أنه لا يكذب في كل حديث يحدثه، ولكن طالما ثبت كذبه مرة فيجب معاملته كذلك حتى يتوب وتحسن توبته، والله أعلم .

كل هذا أصابهم بسبب ما صنعوا بيوسف عليه السلام منذ زمنٍ طويلٍ، فعقوبة العاصي قد تتأخر، وقد يملي الله للظالم ولكنه لا يهمله، ولا يضيع حق المظلوم ودعوته كما في الحديث القدسي: « **وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين** »(١) .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٥٢٥، ٣٥٩٨)، وابن ماجة (١٧٥٢) بلفظ « بعزتي »، وأحمد (٧٩٨٣، ٩٤٥٠)، والطبراني (٣٧١٨) عن خزيمة بن ثابت ، و صححه الألباني في صحيح الجامع (١١٧).

كرب جديد فوق الحزن القديم

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾ .

كيف كان وقع الخبر على يعقوب عليه السلام ؟ ضاع ابنه الثاني الحبيب إلى نفسه، وغاب الثالث في انتظاره، وكيف كان رد فعله على هذه المصيبة الشديدة عليه السلام ؟ ثم كيف يكون ابنه الحبيب المُرَبَّى على عينه، الذي يعلم صفاته وسجاياه الطيبة شبيه يوسف الكريم عليه السلام قد سرق ؟ أمرٌ لا يقبل ولا يصدق، فكان من الطبيعي أن يتهم إخوته الذين سبق منهم الكذب والخيانة، ومضى منهم الحسد والضغينة بأن نفوسهم المريضة قد سولت وزينت لهم أمرًا بأخيهم الثاني، فقد كانت كلمتهم هذه المرة : ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ شبيهةً بكلمتهم أول مرة : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾، كما كان عهدهم في هذه المرة : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ كعهدهم أول مرة كذلك، فكان جوابه عليهم مثل ما قال لهم أول مرة : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، قال ابن كثير : « قال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه وصح قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ » أ.هـ.، والذي يظهر لي، والله أعلم، أن يعقوب ما قصد فعلهم الأول حتى يتكلف تصحيح قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ بل كان هذا ظنًا من يعقوب عليه السلام أنهم صنعوا مكرًا بأخيهم بنيامين، ولا مانع من تجويز الخطأ في الظن على الأنبياء وهم لا

يُقَرُّون على ذلك، فإذا كان الخطأ في الاجتهاد في الأحكام جائزًا وواقعًا، فلأن يكون جائزًا وواقعًا فيما لا يترتب عليه حكم أولى وأحرى، ولقد اجتهد النبي ﷺ في شأن الأعمى ونزل عتابه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢]، واجتهد في أسارى بدر، واجتهد فى قبول عذر المنافقين فى غزوة تبوك، وبَيَّنَ الله له عفوه عنه فى هذه الإجتهادات، وقد وقع منه ﷺ فى شأن تأبير النخل ما هو معلوم حتى قال: « **أنتم أعلم بشئون دنياكم** »(١)، وقال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩] وهذا كله دليل على جواز وقوع الخطأ في الاجتهاد من الأنبياء، وأنهم ينبهون عليه، فهذا الذى وقع من يعقوب من هذا الباب، والله أعلم، وهو معذورٌ عليه السلام فيما وقع منه لسابق فعلتهم بيوسف عليه السلام، ومع ظنه ذلك عليه السلام كان رد فعله أجمل وأحسن رد فعل: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أى: الذى لا شكوى فيه إلى الخلق، ما أعظم صفات الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -، مصيبةٌ هائلةٌ وخطبٌ جسيمٌ نكأ الجرح القديم والحزن الدفين، ومع ذلك فلا يقابل إلا بالصبر الجميل، بل ولما زاد الكرب وعظم المصاب واشتد البلاء رجا قرب الفرج من ربه العليم الحكيم فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أى: بأبنائه الثلاثة يوسف وبنيامين وكبيرهم رويل أو يهوذا، و﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، وهى من أنبياء الله خبرٌ عنه - عز وجل -، فإن شدة البلاء علامة على قرب الفرج لأن الأمور يدبرها العليم بأحوال عباده، الحكيم فيما يقدره، ليست الأمور تجرى بغير حكمة وإحكام، وليست من صنع البشر، إن المقادير يقدرها العليم الحكيم بعلمه وحكمته وإحكامه لكل شيء صنعه، لا يضع الأشياء إلا فى مواضعها، ولا يشرع الشرائع ولا يقدر المقادير إلا للحكم والمصالح التى هى أحب

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣) الفضائل، وأحمد (١٢١٣٥).

إليه مما لو لم يقدر المكروه، فيخلو الأمر عن هذه الأمور المحبوبة التى ترتبت على المكروه، فكم فى هذا الألم الذى قدره الله على يعقوب عليه السلام من حكمة بالغة ومصلحة عظيمة، وعبادة له سبحانه، وقدوة وأسوة، وصبر وحلم، ورجاء وحسن ظن بالله، ومعرفة بأسمائه وصفاته وشهود أثارها في الكون، وكم ارتفعت درجات يعقوب عليه السلام عند الله، وكم من ثناء حسن ولسان صدق في الآخرين بسبب موقفه الرائع : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، اللهم لك الحمد على ما قضيت، ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت .

وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أعرض عن أبنائه وتذكر حزنه القديم على يوسف عليه السلام، جَدَّدَ له فَقْد الابْنَيْن حزن فَقْد يوسف، بل هو لم يزل موجوداً في قلبه لم يفارقه، ولكن الصبر الجميل منع من ظهوره أمامهم، وقد يتعجب المرء من أن الخبر بفقد بنيامين كان يناسبه أن يقول: «يا أسفى على بنيامين»، ولكنه قال: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ فلا شك أن يوسف أحب إليه، ثم إن هذا الموقف ذكره بقيمة يوسف عليه السلام وقَدْرِه وصفاته الجميلة .

فها هم أحد عشر رجلاً لا يستطيعون حفظ واحد منهم، فما قَدْرُهم بالنسبة إلى قَدْرِ يوسف عليه السلام؟ إن هذه البلايا إنما يقوم لها يوسف عليه السلام مقامهم مجتمعين، بل خيراً منهم بلا شك، ووالله لقد كان، فيوسف هو الذي يفرّج الله به كرب يعقوب في بنيه، ولكنه يفتقده حين ما قال : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ، إن فَقْدَ الرجال وغياب الكرماء وانعدام الثقات هو الذي يؤلم رعاة البشر الأنبياء وأتباعهم، إن هذا المعنى والله أعلم الذي جعل عمر رضي الله عنه عندما يصلي بالناس فيقرأ هذه السورة، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى عن يعقوب في هذا الموضع : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، سمع نحيبه ونشيجه، أي : بكاؤه من آخر

المسجد وهو الذي يقول: « **اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة** »، ويقول لجلسائه: « **تَمَنَّوْا** »، فيتمنى أحدهم مالاً ينفقه في سبيل الله، ويتمنى الآخر خيلاً يجاهد عليها في سبيل الله وغير ذلك، فيقول: « **لكنّي أتمنّى داراً مثل هذه، فيها رجال مثل أبي عبيدة بن الجراح أستعملهم في أمور المسلمين** »، أو كما قال رضي الله عنه، إنه والله همٌّ عظيمٌ وشدةٌ شديدةٌ أن يفقد الرجال، إذا كان في زمان عمر والصحابة رضي الله عنهم حوله متوافرون يشكو إلى الله عجز الثقة، بل أعظم من ذلك إذا كان رسول الله ﷺ هو الذي يقول: « **الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة** »(١) متفق عليه، فالراحلة التي تصلح للسفر الطويل وحمل الأعباء أقل من واحد بالمائة في الناس، فكيف بأزمانٍ انعدم فيها الثقات وغاب فيها العلماء وعز فيها الكرماء ؟! اللهم إليك المشتكى، ويا أسفى على أصحاب رسول الله ﷺ وأمثالهم – وما لهم مثيل – وأشباههم وأتباعهم، ماذا نصنع وكيف نهنأ بالعيش، والمسلمون قد تضاعف عددهم بالآف الملايين، وتضاعف كربهم ومحنتهم وبلاؤهم، وعظم الجهل فيهم وقل العلم فيهم، وتسلط عليهم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، أما يحق لنا أن نبكي ونبكي على أنفسنا وأهلينا وأبنائنا وأمتنا .

إن يعقوب عليه السلام لما ضيّع أبناؤه أخاهم الثاني، تذكر أمانة يوسف عليه السلام وكرمه وعلمه وحسن صفاته، فتأسف عليه، ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ شكوى إلى الله – سبحانه – وحزناً على عدم الراعي الشفيق الرفيق، ومن يعد لنوائب الدهر مع أنه يعلم أنه عن قريب يلقاه، وأن غيابه مؤقت لأنه يعلم من الله – من وعده الصادق الذي لا يخلف – ما لا يعلمون، يعلم من حكمه وجوده سبحانه، ويعلم من رحمته وفضله ما لا يعلمون، يعلم من عزته سبحانه، وأنه

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧) فضائل الصحابة، والترمذي (٢٨٧٢)، وابن ماجة (٣٩٩٠)، وأحمد (٥٣٦٤) .

الغالب على أمره، وأنه حسب من توكل عليه، وأنه لا يضيع أجر المحسنين، ما يجعله يوقن بقرب لقاء يوسف عليه السلام .

فهل نبكي على حالنا وحال أمتنا، نشكو إلى الله همنا وحزننا وبثنا عسى أن يكون في ذلك قرب فرجنا ؟ فإن كنّا لا ندري ما يصنع الله بنا كأفرادٍ أو كجيلٍ، لكننا على يقين من أن الأمة لا تموت وأن الحق منها لا يضيع، وأنه « **لا تزال طائفة منها على الحق ظاهرين لا يضرها من خالفها أو خذلها حتى تقوم الساعة** » ، ونسأله سبحانه أن يجعلنا منهم وأن يجعلنا خطوات على الطريق ولبنات في البناء إنه هو العليم الحكيم .

وقوله تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي: ذهب ضوؤها فعَمِيَ يعقوب عليه السلام ، وهذا بلاءٌ جديدٌ، فإنه يأمل ويرجو أن يرى يوسف بعينيه، ذهبت العينان وذهب البصر بسبب الحزن، ولكن الرجاء في الله باقٍ والصبر قائم، وهذا دليل على أن الحزن لا ينافي الصبر والرضا، فإنه من الرحمة بخلق الله – سبحانه – لا من السخط على قدر الله، كما قال النبي ﷺ: « **تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بفراقك يا إبراهيم – يعني ابنه – لمحزونون** »⁽١⁾ .

إنه مقام الرحمة بالخلق وفيض المشاعر الرقيقة الرفيقة وزوال القسوة التي لا يحبها الله، إن وجود الألم الفطري لا ينافي الرضا عن الله وبالله فضلاً أن ينافي الصبر، ولكنّ هذا الألم يذوب في حلاوة الرضا ويفيض الله على القلب ما يغنيه ولا يشقيه، فيكون حزنًا وبثًا عجيبًا لا يشقى به الإنسان، بل يجد لذة الشكوى إلى الله، والشعور بآثار رأفته وروحه، ويبكي فرحًا، ويشتكي سرورًا، ويتألم ملتذًا .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري(١٣٠٣) الجنائز، ومسلم(٢٣١٥) الفضائل، وأبو داود(٣١٢٦) الجنائز بلفظ« وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » بدل« وإنا بفراقك » .

ووالله إنه لأمرٌ عجيبٌ ولكنه حقيقي، قد يصعب وصفه أو يستحيل إدراكه إلا بالوجد والذوق، ولكن إذا تأملت الآيات وجدته والله جليًا واضحًا، فيعقوب قد صبر الصبر الجميل، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم أي : ساكت كئيب، لا يشكو أمره وما يجده في صدره إلى مخلوق، وليس حزنه وبثه (أي : همه وغمه) على المستقبل والحاضر، والحزن على الماضي ليس لفوت دنيا ولمجرد فقد ابن، بل قلق على مستقبل أمّة وغياب راعٍ شفيقٍ يقوم مقام أمّة، وهو مع ذلك لا ييأس من روح الله ويبث روح الرجاء التي تبدد ظلمات اليأس في بنيه الذين يشفقون عليه من الضعف : ﴿ **قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا** ﴾ أي : ضعيف القوة، ويخشون عليه من الهلاك : ﴿ **أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ** ﴾، فيقول لهم واصفًا حقيقة بكائه وحزنه : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ .

إن عبادة الشكوى إلى الله عبادة عظيمة تجلب للقلب أنواعًا من الطمأنينة والراحة والسكون والسعادة ما لا يمكن أن يوجد في عبادة غيرها، إنها عبادة أدّاها نوح عليه السلام حين شكى إلى الله فقال : ﴿ **رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)** ﴾ [نوح : ٥ – ٧]، وأدّاها محمد ﷺ حين قال : « **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك لك العتبى**

حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» (١) إنها عبادة استوقفت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين سُمع نشيجه عند هذه الآية واستوقفته حين كان مع أصحابه، فاستوقفته امرأةٌ عجوزٌ، فترك الناس وقام معها فأطال القيام حتي قضى حاجتها فانصرفت .

فقال له رجل : يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش علي هذه العجوز .

قال : ويحك، وتدري من هذه ؟

قال : لا .

قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلي الليل ما انصرفت عنها حتي تقضي حاجتها، إلا أن تحضر صلاة فأصليها ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها (وإن كان منقطعاً فقد روي من غير وجه) .

إن عبادة الشكوى إلي الله من أجلِها قدّر الله المحنة والبلاء، بل والمعصية والكفر، حتي يسمع تضرع عباده إليه، ويؤخر إجابة دعوتهم – وقد أجابها – لأنه يحب أن يسمع تضرعهم وشكواهم إليه : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ [الأنعام : ٤٣]، فهل وجدت أخي المبتلي مفتاح الكنز الذي معك وربما لا تدري ؟ فهلا فتحت القفل بالمفتاح وأعددت القلب ليُفْضَى عليه من الرحمة ويُسْبَغ عليه من النعمة ؟ اللهم نشكو ما نزل بنا وبالمسلمين، ونؤمن بك ونتوكل عليك، نرجو رحمتك ونخاف عذابك، فاللهم فرج كرب المكروبين، وفك أسر المأسورين، وارفع الظلم عن المظلومين، اللهم استر عورات المسلمين وآمن روعاتهم، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، اللهم ارحم موتاهم، واشف

---

(١) رواه الطبراني ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٢) وإن كانت شهرته تغني عن إسناده ، وقد قال ابن القيم عنه : « عليه نور النبوة » .

مرضاهم وجرحاهم وخفف آلامهم، وارحم أطفالهم وأيتامهم وأراملهم ورجالهم ونساءهم في كل مكان يا رب العالمين (١).

وفي قوله عليه السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استحضار الخصوصية في العلاقة مع الله سبحانه والعلم به – عز وجل –، وهذه الخصوصية من أعظم الأسباب الجالبة للمحبة والشوق إلى الله سبحانه، لأنها من أعظم النعم والمنن، والحب ينبت على حافات المنن، والشوق يحصل بشهود الفضل والاختصاص، وإذا كان هذا الاختصاص يتعلق بالعلم بالأسماء والصفات والأفعال، فهو أعظم

---

(١) قصيدة قافلة الأحزان، قال أخونا وشاعرنا المفضال عثمان العامري:

١- دماءُ المسلمينَ بكلِّ ارضٍ   تسيلُ وجرحُهُمْ لا يستكينْ
٢- وكالأنعامِ في الليلِ المطيرِ   بلا راعٍ يدلُّ ولا امينْ
٣- واطفالٌ مُمَزَّقةٌ ضحايا   لها في كلِّ حادثةٍ شجونُ
٤- صغارٌ ما راوْا يومًا امانًا   فبالأحقادِ ترميهُم عيونُ
٥- وجاءوا الدنيا ما عرفوا اَباهم   وغابتْ عَنْهُمو الأمُّ الحنونُ
٦- اراملُ في البلادِ لها بُكاءٌ   فإنْ ذهبَ الرجالُ فمَنْ يصونُ
٧- واعراضُ الحرائرِ قدْ أُبيحتْ   ليدعِ ساقَهُ حقدٌ دفينُ
٨- وذُبِّحتْ الرجالُ بكلِّ وادٍ   ودُمِّرَتْ المعاقلُ والحصونُ
٩- تلوَّنَت المسالكُ بالدماءِ   وفُتِّحَتِ المحابسُ والسجونُ
١٠- ففي بغدادَ كبَّلهُم حصارٌ   وفي الأفغانِ يحصدهم انينُ
١١- وفي الأقصى جبانٌ باعَ ارضًا   ووعدٌ للإلهِ مضى يخونُ
١٢- فعبَّادُ الصّليبِ اتوْا لحربٍ   وكلُّ الأرضِ تُشجبُ او تُدينُ
١٣- وعابدٌ عجلهم امسى هُمامًا   يُحبَّرُ في الرّبا وهو المهينُ
١٤- فهلْ عادَ التتارُ إلى دياري   فنامَ القومُ ثبَّتهُمْ سُكونُ
١٥- امِ الإيمانُ قدْ امسى طريدًا   فمَنْ يَهْدي الطريقَ ومَنْ يُبينُ
١٦- يكادُ القلبُ تحرقُه البلايا   يكادُ العقلُ يصرعُه الجنونُ
١٧- أهذي دارُنا دارُ السلامِ   مقرِ خلافةٍ منها الأمين ؟!
١٨- سعى فيها الخرابُ بكلِّ لونٍ   ودمَّرها لإبليسٍ قرينُ
١٩- نُسائلكُم أماتَ الحسُّ فينا   فنامتْ عَنْ مخازينا الجفونُ
٢٠- نُسائلكُم ودمعُ العينِ جارٍ   لماذا سكوتُكم هذا المشينُ
٢١- اعزَّ عليكمو نصرُ الثكالى   فلا يدةٌ تُمَدُّ ولا مُعينُ
٢٢- كانّ مُصابَ اندلسٍ دهاكُم   ودُمِّرَ فوقَ ليثِكُمُ العرينُ
٢٣ كانّ الأمرَ فينا ما عناكُم   ولمْ يجمعْنا بالتوحيدِ دينُ
٢٤- كانّ الخطبَ فينا صارَ فرحًا   يُذمُّ إذا بكى فيه الحزينُ
٢٥ إلهي امةُ الهادي تئنُّ   فدبِّرْ امرَها انتَ المعينُ
٢٦- إلهي فلتردِ الباسَ عنّا   فدينُك ربَّنا لا لا يهونُ

اختصاص واجتباء يفتح الله به على القلب أنواع السكينة والأمن والطمأنينة والراحة مما هو دقيقة من نعيم أهل الجنة، فنسأل الله النعيم الذي لا ينفد وقرة العين التي لا تنقطع .

* * *

رجاء في رحمة الله

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ .

بددت الشكوى إلى الله ظلمات اليأس، وجددت في القلب أنوار الرجاء في رحمة الله ورفع البلاء القديم والحديث، فخاطب يعقوب أبناءه بهذا النداء المحبب : ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ الذي إنما استعمله معهم عندما رأى منهم بعض الرقة في القلوب وبعض الإقبال على الله – سبحانه –، لا حين تكون نفوسهم الأمارة بالسوء مسيطرة ومتوجهة إلى الاستجابة لكيد الشيطان، ولقد كان البلاء الشديد الذي نزل مع شفقتهم على أبيهم من الضعف أو الهلاك والموعظة التي وعظهم أبوهم بشكواه إلى الله ومعرفته ربه سبحانه له أكبر الأثر في انكسار نفوسهم ورقة قلوبهم، فوجه لهم أبوهم نصحه بأن يذهبوا في الأرض باحثين عن أخبار يوسف وأخيه بنيامين، و(التَّحَسُّسُ) يكون في الخير، و(التَّجَسُّسُ) يكون في الشر، هذا هو الغالب، وقد يستعمل (التَّحَسُّسُ) في الشر، كما في الصحيح : « ولا تحسسوا »(١)، فيكون عند ذلك (التَّجَسُّسُ) للغير و(التَّحَسُّسُ) للنفس، وهنا (التَّحَسُّسُ) إنما هو الاستعلام والبحث في الخير، ثم بشرّهم بقرب الفرج ونهاهم عن اليأس من روح الله (أي : إراحته ورحمته) فإنه : ﴿ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وذلك أن الرجاء من أركان الإيمان، وهو من أعمال القلوب الواجبة التي وجود أصلها في القلب ركن من أركان الإيمان، إذا زالت بالكلية زال الإيمان .

ولذا قال الإمام الطحاوي : « والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام »، وروى البزار عن ابن عباس مرفوعًا ورجح ابن كثير وقفه : سئل رسول الله ﷺ عن

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٤٨٤٩) ، ومسلم (٢٥٦٣) ، وأبو داود (٤٩١٧) .

الكبائر، فقال: «**الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله**»(١)، وروى ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله**».

والقنوط أشد اليأس، فالواجب على المؤمن مهما اشتدت المحن وزادت البلايا أن يظل مستبشرًا برحمة الله راجيًا فضله وجوده، والشيطان هو الذي يوسوس له ليحزنه ويقنطه من رحمة ربه أرحم الراحمين (٢).

فليرد كيده وليستعذ بالله من من وسوسته، ويأخذ بما يقدر عليه من أسباب، وينكسر لله – سبحانه – ويتذلل له، فيخبره ربه ويعزه كما فعل بأبناء يعقوب.

---

(١) صحيح: رواه البزار عن ابن عباس، وابن كثير (١/٤٨٥) في تفسير آية ﴿ إن تجْتنبُوا كبائر ما تُنهوْن عنهُ نُكفِّرْ عنكُمْ سيِّئاتكُمْ ﴾ [النساء: ٣١]، وقال في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا فقد روي عن ابن مسعود نحو ذلك.

(٢) قصيدة «حذار أخي إياك» للأخ الكريم عثمان العامري:

١- حَذار أُخيّ إيّاكَ منْ الأحزان تغْشاكَ
٢- حذار أُخيّ منْ ياسٍ ينوحُ على مُحيّاكَ
٣- فإنّ الهمّ منفرجٌ وليسَ الربُّ ينساكَ
٤- فلا تُبْد ولا ترفعْ لغير الله شكواكَ
٥- وإنْ أحسنْتَ يا حِبّي فإنَّ اللهَ يرعاكَ
٦- وقلْ أخلصتُ لله ولا تركنْ لدنياكَ
٧- وإنْ تعجلْ إلى الله فبالجنات بشراكَ
٨- فلا تخشَ منْ السيرِ وقرآنٌ بيمناكَ
٩- إذا ما سرتَ في وادٍ فطبْتَ وطابَ ممْشاكَ
١٠- فهلْ تصبو إلى الدنيا وربُّ الكونِ أرضاكَ
١١- بدينٍ خالصٍ يسمو وبالإسلام أصفاكَ
١٢- هدى عينيك للحق وبالنورين أحياكَ
١٣- ولو تحيا على السُّنَنِ فما أسمى سجاياكَ
١٤- فهذا الخيرُ منْ ربٍ عظيمٍ قدْ تولاكَ
١٥- هداكَ طريقهُ فضلاً وبالعصماءَ أغناكَ
١٦- فلا يَحزن أخا دَرْبي فإن اللهَ مولاكَ
١٧- إذا ما كنتَ في تقوى وربُّ الناس زكاكَ
١٨- فأبشرْ يا ضيا عيني جنانُ الخُلد مأواكَ
١٩- هو الفوزُ إذا المولى من النيران نجّاكَ
٢٠- فلا تخشْ ولا تحزنْ إذا ما اللهُ آواكَ
٢١- فموعدكَ على الحوضِ هناك تنال سُقْياكَ
٢٢- بماءٍ بارد يحلو رسولُ الله يلقاكَ
٢٣- ملائكةٌ تحيتهم سلامٌ بهم عُقْباكَ

انكسار وضعف

قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)** ﴾.

ذهب إخوة يوسف إلى مصر، ودخلوا على يوسف في حالة ذلة وضعف ما حصل لهم قبل ذلك أبدًا قالوا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ﴾، وهذا النداء كما سبق فيه إشعار بعزته وذلهم، رغم أنه لقب إلا أنه حق بالنسبة ليوسف، وفي قولهم: ﴿ **مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ﴾ أي: الجدب والقحط وقلة الطعام، وما نزل بهم من بلاء بفقد أخيهم مع حزن أبيهم وفقده بصره بسببهم، فيه زيادة انكسار وخضوع وفي قولهم: ﴿ **وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ** ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما :الرديء الذي لا يَنْفَق مثل خَلَق الغرائر والحبل والشيء، فليس عندهم بضاعة مقبولة في السوق نافعة، بل الأكياس الخَلقَة القديمة (الجوالات) والحبال، وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان، وقال الضحاك: مزجاة: كاسدة، قال ابن كثير:« وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشيء، فهي بضاعةٌ مردودةٌ لضعف قيمتها، في هذا القول مزيد انكسارٍ وذلٍ، فهم لا يطلبون ما يأتي من الكيل الوافي على سبيل الاستحقاق وبذل الثمن، بل على سبيل الصدقة والإحسان منه لهم والمن عليهم: ﴿ **فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** ﴾ أي: أعطنا بهذه البضاعة الكاسدة ما كنت تعطينا قبل ذلك وتصدق علينا برد أخينا، وهم لا يستطيعون مكافأته ورد جميله بل يطلبون له من الله الجزاء: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** ﴾ آل أمر أخوة يوسف بعد الظلم والطغيان والعدوان إلى أن أصبحوا يسألون الصدقة، سبحان الله! يعز من يشاء ويذل من يشاء، أيّ ذلٍ وانكسارٍ أشد من هذا الذي حصل لهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

وإنما طلبوا بانكسارهم ذلك عطية المحسن الكريم الذي علموا إحسانه وجوده، وإذا كان هذا حال من سأل مخلوقًا فرَحِمَه عندها وجَبَرَ كَسْرَهُ، فكيف بمن يسأل بهذا الذل والانكسار أكرم الأكرمين وأجود الأجودين؟ بل الإحسان والكرم لا ينبغي أن يرجى إلا منه، فينبغي على العبد المؤمن أن يدعو ربه مستحضراً ذله وعزة ربه، العزيز حقًا الذي لا تنبغي العزة إلا له، ومتوسلاً إليه سبحانه بما أصابه من البلاء، وأحسنه ما كان في سبيله وما أصاب أهله كذلك، فإن ذلك من أسباب استجلاب الرحمة، لأن الله يلتمس فضله بضعف الضعفاء قال رسول الله ﷺ: « وهل تنصرون إلا بضعفائكم » (١)، ويرجى جبره لقلوب المنكسرين غير المعجبين الفخورين، وليقدم في دعائه شهوداً بأن عمله وسعيه هو كبضاعةٍ مزجاةٍ بائرةٍ كاسدةٍ، فلو عامله الله بعدله رد عليه عمله، لما فيه من آفات ظاهرة وباطنة يستحق أن يرد بها، إلا أن طمعه ورجاءه في كرم أكرم الأكرمين الشكور الذي يقبل القليل من العمل ويغفر الكثير من الزلل، هو الذي يدفعه إلى طلب الفضل والمنة والمنحة، وليس أنه يستحق على ربه شيئًا، ومن أكرم من الله الذي يوفى الأجر على عمل كاسد وما فيه من خير؟ هو الذي منّ به على عبده ووفقه له، وهداه وسدده، وألهمه رشده حتى عَلِمَه، وأحبه وأراده وعزم عليه، ونواه وعمله، وهو المسئول أن يقبله صدقةً منه على عبده، وهو الكريم المنان، وقد اشتهرت هنا مسألة وهي هل يجوز أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق عليّ؟ قال ابن كثير: « وقال ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان عن عثمان بن الأسود قال: سمعت مجاهداً سُئل هل يكره أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق عليّ؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب » أ.هـ.

وهذا القول ليس بصحيح، بل لا كراهة في هذا، لحديث عمر رضي الله عنه في

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٦) الجهاد والسير بلفظ: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم، وابو داود (٢٥٩٤) الجهاد، والنسائي (٣١٧٩) الجهاد، والترمذي (١٧٠٢) الجهاد، واحمد (١٤٩٦).

صحيح مسلم في سؤاله النبي ﷺ : ما بالنا نقصر وقد أمنا ؟ (يعني قصر الصلوات في السفر الآمن)، فقال النبي ﷺ : « **صدقةٌ تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته** »(١)، وإنما قال إخوة يوسف : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾ لأنهم إنما يطلبون الصدقة من مخلوقٍ لا يملكون مجازاته، فطلبوا الجزاء له من الله سبحانه، فلا يقتضي هذا منع جواز إطلاق أن الصدقة من الله، وبالتالي يجوز طلبها منه سبحانه، والله أعلم .

كان لهذه الكلمات وهذه الحال الشديدة والجهد والضيق والانكسار أكبر الأثر في قلب الكريم الرحيم ذو الصدر الرحب المنشرح المستغني بالله سبحانه عمن سواه وعن الانتصار للنفس، يوسف الصديق عليه السلام، ففاض من هذا القلب ينابيع الرحمة والرأفة والشفقة، فكشف لهم عن شخصيته وأبرز لهم حقيقته .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٦٨٦) صلاة المسافرين ، والترمذي (٣٠٣٤) تفسير القرآن ، والنسائي (١٤٣٣) كيفية الصلاة في السفر .

صفحٌ وعفو

قال تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء، فتعرف إليهم فيُقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيه شامة، وقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ يعني : كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي : إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف : « كل من عصى الله فهو جاهل » وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النحل : ١١٩]، والظاهر والله أعلم أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرّج الله تعالى من ذلك الضيق كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ [الشرح : ٥- ٦] » أ.هـ.

هذا أوان تحقق وحي الله ليوسف وهو ملقي في غيابة البئر مضطهداً مظلوماً ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ ، ها هو يتحقق بعد عشرات السنين، فوعد الله لا يخلف وإن استبطأه الناس، وتأمل في شرف هذه النفوس وكرمها، فما زاد يوسف عليه السلام

على هذه الكلمة في عتابه لهم رغم شدة الجرم وفداحة الظلم، وما ثَرَّبَ عليهم بعدها ولا قبلها بغيرها، وإنما يتيسر مثل هذا مع كمال الغنى بالله سبحانه ومشاهدة مَنِّه وفضله فلا يجد حب الانتقام إليه سبيلاً .

ووالله إن صاحب مثل هذا القلب الرحب والصدر المنشرح ليجد حلاوة زوال الغل في قلبه، وهذه أيضًا دقيقة من نعيم أهل الجنة : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف : ٤٣]، فالغل وحب الانتقام مؤلم للإنسان، وإرادة أذية الخلق مؤلمة للنفس، وإن كان أكثر الناس لا يفهمون، والمؤمن إنما يصرف رغبته في الانتصار إلى الانتصار لله – عز وجل – إذا خولف أمره وظهرت معصيته، ولا يدع (زبالة) الانتقام للنفس تفسد عليه حال قلبه، فاللهم اشرح صدورنا بالعفو، واملأ قلوبنا غنى بك عمن سواك .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ كان وقع المفاجأة هائلاً عليهم، وهل كان يخطر أو يمكن أن يجول بخاطرهم مجرد احتمال، أن يكون عزيز مصر في ملكه وأبهته هو أخوهم يوسف الذي باعوه رقيقًا في صغره لمن ظنوا أنه يسومه سوء العذاب ؟ فقالوا على سبيل الاستفهام، والاستعظام، والتعجب : ﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ فأظهر لهم أخاه أيضًا في أحسن حال، وليس رقيقًا مستعبداً كما كانوا يظنون، وقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فيه شهود نعمة الله ومنته وفضله بالجمع بينهما بعد الفرقة، وبالتمكين بعد الاستضعاف، وبالثبات على الدين والطاعة، ووجود الألفة والمحبة وغير ذلك مما لا يحصيه أحد، ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهذه قاعدة كلية عامة لكل زمان ومكان ولكل أحد، فيها بيان عاقبة التقوى والصبر والإحسان، فالله سبحانه لا يضيع عملهم ولا أجرهم، وهم من أحسنوا في عبادة ربهم حتى كأنهم يرونه، فيثمر لهم ذلك الغنى بالله سبحانه، فيفيض من قلوبهم على الخلق من حولهم رحمة وإحسانًا وعفواً وصفحًا ومغفرة .

والتقوى والصبر من أعظم علامات الإحسان، فهو يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي ويصبر على ما يصيبه، والناس في هذا المقام أربعة : منهم من لا تقوى له ولا صبر، فهو في غي شهواته، وإذا أصابته مصيبة فهو يئوس "كفورٌ"، وهو أسوأ الأنواع، ومنهم من يتقي عند الرخاء، فإذا أصابته مصيبة فلا صبر له فيجزع ويتسخط، فلا يصلح لمحبة الله سبحانه، ومنهم من عنده جلد وتحمل، ولكنه عند تمكنه من أفجر الناس وأظلمهم، فهو كذلك بعيدٌ عن الله ولا ينجو ولا يقترب إلا من اتقى وصبر، فاللهم اجعلنا من المتقين الصابرين .

وقوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ هنا فقط حصلت التوبة لأخوة يوسف، وأخذوا دواء دائهم القديم (الحسد)، ألا وهو شهود قَسْم الله وتخصيصه وإيثاره من شاء من عباده بما يشاء من فضله، فأقسموا ليوسف بما شاهدته قلوبهم لأول مرة : إنه عطاء الله ومنّه، وقد أرشدهم يوسف إليه في قوله: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فهو لم ينسب لنفسه فضلاً حتى في مقام الثناء، لم يقل : أنا اتقيت وصبرت وأحسنت، بل ذكرها في صيغة العموم والقاعدة الكلية : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾، فأخذوا الدواء فانحل الداء وزال المرض، واعترفوا حقيقةً بالخطيئة، فوجدوا القلب الرحيم الكريم مفتوحًا للعفو والصفح، بلا تكرار اعتذار ولا محاولة إذلال ولا توبيخ ولا تأنيب، بل يقول مؤنسًا وحشة إنكسارهم وخزي انكشافهم: ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي: لا تأنيب ولا عتب ولا أعير عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم عليه السلام .

لم يعاقب، بل لم يعاتب بعد ذلك، بل وزادهم الدعاء بالمغفرة : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾، ويتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته ليستجيب هذا الدعاء ويفتح لهم باب الرجاء فيقول : ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾، فكما كان هو - سبحانه - في حفظه ليوسف ورحمته به خيرًا حافظًا وهو أرحم الراحمين، فكذلك في قبول توبة

المسيء النادم ومغفرة ذنب المعترف المنيب الراجع إلى ربه هو أرحم الراحمين، ولما كان هذا الرد هو أحسن رد وأكرمه في مثل هذا المقام، وكان أصحاب رسول الله ﷺ خصوصًا المقربين منهم الخبيرين بخلقه ﷺ كعلي بن أبي طالب قد عايشوا قصص القرآن، وأدركوا أثره في النفس والارتفاع بها، كانت هذه النصيحة الغالية من علي ؓ لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ؓ حين أسلم قبل غزوة الفتح، وكان قبل ذلك من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ رغم أنه ابن عمه، وكان يهجو النبي ﷺ ويؤذيه، وتأخر إسلامه إلى سنة ثمانية، فلقي النبي ﷺ وهو في طريقه لفتح مكة، فكان النبي ﷺ يعرض عنه لما كان يلقي من أذاه، فشكى أبو سفيان ذلك لعلي بن أبي طالب ؓ فقال: « ائته من قِبَل وجهه وقل له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، فإنه لا يرضى أن يكون أحدًا أحسن مردودًا منه »، ففعل فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (١)، وكان بعد ذلك يدنيه ولا يحجبه ويقول: «**عسى الله أن يجعل منه خلفًا لحمزة** ».

ما أفقه علي ؓ وأعلمه برسول الله ﷺ وسجاياه في الكرم والعفو، وحسن الاقتداء بالأنبياء قبله وطلبه محاسن الأخلاق ومعاليها، فكانت نصيحةً أثمرت أحسن الثمار وأزالت آثار وحشة العداوة والتأخر والهجاء، وينبغي لمن سامح أخًا من إخوانه أن لا يعتب عليه بعد مسامحته، ولا يذكر له التثريب بعد ذلك، وإلا كان عائدًا في هبته، وقد قال النبي ﷺ: « **ليس لنا مثل سوء العائد في هبته، كالكلب يعود في قيئه** » (٢)، وإن كان الاستدلال به مشهورًا في هبة الأموال ونحوها، فهو في هبة الحقوق والأعراض والمظالم أولى وأحرى، وتأمل كيف أن

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٣/٤٣-٤٤) من حديث ابن عباس، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الأرنؤوط [انظر زاد المعاد ص (٣٥٢،٣٥٣) ط. الرسالة]، وذكره في سنن البيهقي الكبرى حين دخل مكة ﷺ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٢٢)، ومسلم (١٦٢٢)، والترمذي (١٢٩٨).

يوسف عليه السلام وفّى لأخوته بما وعد من عدم التثريب، فإنه لما سجدوا له وذكر أباه برؤياه : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ فلم يقل : من بعد أن فعل إخوتي ما فعلوا، أو حتى من بعد أن نزغ الشيطان في قلوبهم ما نزغ، أو حتى من بعد ما نزغ الشيطان بينهم وبيني، بل بدأ بنفسه فقال : ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ صونًا لهم من مجرد الحرج والحياء من فعلهم، فنسب الفعل إلى الشيطان وجعله نزغًا منه بينه وبينهم صلى الله عليه وسلم .

* * *

بشرى الفرج

قوله تعالى : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾ .

قميص يوسف له شأن مع أبيه يعقوب – عليهما السلام –، كان مجيئه إليه ملطخًا بدم كذب معه خبر البلاء بغيابه وفراقه العمر الطويل، ثم كان قميصٌ آخر يحمل معه خبر الفرج من كل الجهات، وهي والله مناسبةٌ جميلةٌ من يوسف عليه السلام، وهو يعلم أن قميصه الذي نزعه منه إخوته يوم أخذوه من أبيه كان وصوله إليه سبب حزنه وغمه، فأراد أن يكون قميصه سبب الفرح والسرور، ويظهر أنه كان بوحيٍ، لأنه قال : ﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وذلك أنه قد عمي من شدة الحزن والبكاء على يوسف عليه السلام، كما قال تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، فردّ بصر يعقوب بقميص يوسف – عليهما السلام – معجزةٌ لهما، وآيةٌ من آيات الله تعالى، وعلامةٌ على مدى حب يعقوب ليوسف – عليهما السلام –، وحق له والله أن يحبه، ولو لم يكن ابنه الذي رباه، فكيف وهو ابنه الحبيب المجتبي من رب العالمين ؟ وقوله تعالى عن يوسف : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : جميع أبناء يعقوب وزوجاتهم وأبنائهم، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي : خرجت من مصر، ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي : تنسبوني إلى الفند، وهو الكبر الذي

معه زوال بعض العقل، روى عبد الرزاق عن ابن عباس قال: « لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام » .

وما ذكره ابن كثير - رحمه الله - عن الحسن وابن جريج: أنه كان بينهما ثمانون فرسخًا، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة، فغير ظاهر في الأمرين، والظاهر أنه من الإسرائيليات، فالمسافة بين مصر وأرض كنعان قرب بيت المقدس أكبر من ثمانين فرسخًا، والمدة أقل من ذلك، والله أعلم .

وفي قوله: ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تسفهون، وقال مجاهد والحسن: تهرمون، أي: تنسبون إلىّ الهرم، وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لفي خطئك القديم، وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظةً لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله عليه السلام، وكذا قال السدي. أ.هـ. من ابن كثير باختصار .

سبحان الله ! كم يحب يعقوبُ يوسفَ - عليهما السلام - ؟ ريحه من هذه المسافة الطويلة الذي هاج من قميص له، يريحه ويسره ويفرحه، شأن الحب شأنٌ عجيبٌ، ورحمة الله بعبده المؤمن وبعثه له ما يبشره بما يسره من قرب فرجه بعد نجاحه في المحنة وصبره على المصيبه يدركها من وجد أثر القرب، وعلم من أسماء الله وصفاته وأفعاله ما لا يعلمه الناس، وهذا ما يكاد معه قلب المؤمن يذوب حبًا وشوقًا إلى ربه الرحمن الرحيم، القريب المجيب، البر الودود، صادق الوعد لا يخلف الميعاد، الغالب على أمره الفعال لما يريد، الذي يحب عبده المؤمن ويكره مساءته، ذو الفضل العظيم والطول والمن، العزيز الحكيم، الكريم الحليم، يبشر عباده المؤمنين بعاجل البشرى في الدنيا، ليدلهم على ما أعد لهم عنده إذا وفدوا

عليه من قرة الأعين ولذة الأنفس، وأنواع الإكرام والإنعام والود والإفضال، اللهم إنا نسألك من فضلك ورحمتك، فإنه لا يملكها إلا أنت .

ويعقوب عليه السلام يعلم أن بنيه الموجودين حوله في وادٍ آخر، فلن يقبلوا مثل هذا الوجد ولن يصدّقوا بحقيقته، وقد كان، فقالوا لأبيهم نبي الله تلك الكلمة الشنيعة الدالة على جهلهم وسوء أدبهم وعدم معرفتهم بما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ، ونسبة الضلال والخرف والسفه وزوال العقل للأنبياء كفرٌ والعياذ بالله، ولولا الجهل لكفروا، ولكنهم معذورون بجهلهم، وإن كانوا آثمين فيما قالوا لتقصيرهم في حق نبي الله يعقوب، أبيهم عليه السلام .

ولكن سرعان ما تحقق وجد يعقوب عليه السلام، ووقع ما استبعدوا وظنوه ضلالاً قديمًا في حب يوسف عليه السلام، فجاء البشير وهو البريد الذي استعجلوه للوصول حاملاً أجمل بشرى : وجدنا يوسف، وهو العزيز على ملك مصر، ووجدنا بنيامين معه معززًا مكرمًا حرًا، وعائد أخوهم الثالث روبيل ومعه قميص يوسف الذي ألقاه على وجه يعقوب عليه السلام، فعاد بفضل الله بصيراً ليبصر به ولديه الحبيبين .

فسبحان الله يأت الفرج من كل ضيق، لقاء الغائبين ورد البعيد، ونعمة التمكين والملك ليوسف، ووجود السعة بعد القحط والشدة، ما أروع جزاء الصبر والتقوى، وما أجمل عاقبة الشكوى إلى الله ورجاء فضله وروحه ورحمته، وما أحلى الإيمان به واليقين لوعده وآياته ومشاهدة آثار أسمائه وصفاته وأفعاله، قال ابن كثير – رحمه الله – : « قال مجاهد والسدي : كان الذي جاء بالقميص يهوذا، قال السدي : لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخٌ بدمٍ كذبٍ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرًا، وقال لبنيه عند ذلك : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أي : أعلم أن الله

سيرده إليّ، وقلت لكم : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾، لذلك قالوا لأبيهم مترقفين له : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي : من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى السَحَر، وروى ابن جرير عن محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد، فيسمع إنسانًا يقول : اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سحر فاغفر لي، قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال : إن يعقوب أخرّ بنيه إلى السَحَر بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ » أ.هـ. كلام ابن كثير .

وهذه الآية دالة على مشروعية طلب الدعاء من أهل الفضل والدين، حيث طلب أبناء يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم، وهذا توسلٌ مشروعٌ بدعاء المسلم الصالح الحي، وقد خصّه بعضهم بالأنبياء، وفيه نظر، لأن رسول الله ﷺ قد قال لأصحابه عن أويس بن عامر القرني أفضل التابعين : « **فإن استطعتم أن يستغفر لكم، فمروه فليستغفر لكم** » (١) رواه مسلم .

وقال عمر رضي الله عنه في الاستسقاء : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك » (٢) ثم أمر العباس رضي الله عنه أن يدعو – وهذا بمحضرٍ من الصحابة ولم ينكر – فكان إجماعًا أو كالإجماع، فلا حجة فيمن كره طلب الدعاء من الصالحين، أوجعله خلاف الأولى إلا أن يقصد به نفع الداعي، كما هو مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمة الله عليه –، فإنه يجعله من باب سؤال المخلوقين، ولا شك أن أبناء يعقوب عليه السلام لم يكن مقصودهم الأول نفع يعقوب عليه السلام، ولا أن مقصود الصحابة الأول نفع العباس،

---

(١)، (٢) رواه مسلم (٢٥٤٢) (جزء من حديث طويل)، وأحمد (٢٦٨) .

فهذا تكلفٌ ظاهرٌ، لكن الصحيح أن يقيد هذا السؤال بأمر الأخرة، فخلاف الأولى هو ما كان طلب الدعاء بأمر دنيوي، إذ هو خلاف الأولى في دعاء المرء لنفسه، أما طلب الاستغفار وكل أمرٍ ديني أخروي يعين على مقصود العبد من تحقيق العبودية وهو محبوب للرب سبحانه، فأي نقصٍ في هذا ؟ وقد أرشد النبي ﷺ المرأة التي كانت تصرع بالصبر، ولا يدعو لها حتى تكون لها الجنة، فاختارت الصبر، فلما قالت له : إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف، دعا لها، ولم يقل لها اصبري ولا أدعو لك أو ترك طلب الدعاء أولى، لأن التكشف وهتك حرمة العورة لا يحبه الله، وليس بمقصودٍ شرعيٍ، فكان الدعاء به أمرًا دينيًا أخرويًا، فلا ينبغي النصح بترك طلبه من الغير، والله أعلم .

وفي أثر ابن مسعود رضي الله عنه فضل الاستغفار بالسحر، وعليه يدل قوله تعالى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨]، فهو وقت غنيمة أهل الإيمان والحب الصادق، نعوذ بالله من القسوة والغفلة .

وتجد في هذه الآيات الكريمة مدى تعلق يعقوب عليه السلام بأسماء الله وصفاته في كل أموره : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾، بل لو تأملت كلامه من أول السورة إلى آخرها، لوجدته في معظم كلامه أو كله لابد أن يذكر من أسماء الله وصفاته وأفعاله ما يناسب المقام، فهذه حقيقة الإيمان وهي سعادة الدنيا والآخرة .

لقاء الأحبة

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ .

حان موعد اللقاء، وتحقق وعد الله الصادق، وظهرت عاقبة الصبر الجميل والاستعانة بالله على ما يصفون، قال ابن كثير – رحمه الله – : « يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدومه بلاد مصر، لما كان يوسف عليه السلام قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال أن الملك خرج أيضًا لتلقيه، وهو الأشبه (١)، وقد أشكل قوله : ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام : وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، وآوي إليه أبويه ورفعهما على العرش، وردّ ابن جرير هذا وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾، وفي هذا نظرٌ أيضًا، لأن الإيواء يكون في المنزل كقوله : ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾، وفي الحديث : « من آوى محدثًا » (٢)، وما

---

(١) أظن ابن كثير – رحمه الله – قال إنه الأشبه لأن الملك كان معظمًا ليوسف عليه السلام مطيعًا له، والملك سجاياه وأخلاقه من أول القصة أخلاق كريمة، ويعرف لأهل الفضل قدرهم، فلا يظن أن يتخلف عن استقبال نبي الله يعقوب، خاصة مع قول مجاهد أنه قد أسلم، وهو الظاهر .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٩٧٨)، والنسائي (٤٤٢٢)، وأحمد (٩٥٧) وتكملة الحديث : « فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه فآواهم إليه : ادخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط » أ.هـ.

والظاهر ما قاله ابن جرير، لأنه أقرب إلى ظاهر القرآن، ثم إن الإيواء يمكن أن يكون في منزل مؤقت كخيمة أو نحوها، تعد للملك ومن معه إذ ينتظرون القادمين، وأما ما ذكره ابن كثير أيضًا من أن الله رفع عن أهل مصر بقية السبع السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليه السلام عليهم، كما رفع عن قريش بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ : « **اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف** » (١) لما تضرعوا واستشفعوا لديه، فهذا أيضًا ليس بظاهر، لأن يوسف عليه السلام أخبر بتأويل رؤيا الملك، وهذا خبرٌ وليس دعاءً ولا وعيدًا مجردًا، والأخبار خلفها كذب، وقد أخبر في تأويله أنه يأتي عام بعد السبع السنين المجدبة فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، فمخالفة ذلك بمجرد الأخبار الإسرائيلية لا يجوز، وأما دعاء الرسول ﷺ على قريش، فليس بخبرٍ ولا عندنا دليلٌ على أن الله قد استجابه، كما دعا به رسول الله ﷺ كاملاً، ثم لا نص صريحًا في رفعها عن قريش، والله أعلم .

وقد ذكر ابن كثير عن السدي وابن زيد أن قوله : ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أنهما إنما كان أباه وخالاته، لأن أمه كانت ماتت قديمًا، ورده ابن جرير ونصر القول بأن أمه كانت تعيش، ونصره ابن كثير وهو كذلك، ولابد هنا من التنبيه على أن الآثار الإسرائيلية التي تخالف ظاهر القرآن يجب ردها وعدم قبولها، ولولا وجود أمثال ذلك في كتب التفسير لما كان هناك معنى للاشتغال بها، إذ هذه الأمور كلها مما لا فائدة فيه، ولا يثير معنى إيمانيًا ولا حكمًا شرعيًا .

وتأمل في قوله تعالى : ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ وما يتضمنه من معنى الضم والاجتماع، وما يحتويه ذلك من حلاوة اللقاء وحنان الأمومة والأبوة، ورحمة

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٤٧٧٤) ، ومسلم (٢٧٩٨) بلفظ : **اللهم سبع كسبع يوسف** ، والترمذي (٣٢٥٤) ، وأحمد (٤٠٩٣) .

البنوة بعد طول الغياب، وشهود نعمة الله وفضله في صدق وعده وجميل إحسانه، ووالله إن المرء ليحتاج أن يقف طويلاً أمام هذه اللحظات ليحصل له بها برد اليقين وشفاء الصدر وانشراح القلب، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا من أسباب شرح القرآن للصدور وجلاء الأحزان وذهاب الهموم والغموم، فإن استحضار هذه المشاهد وتذكر كم سبقها من أنواع الآلام، والتي كان معها كذلك من أنواع العبودية التي تحولها لذة وتجعل ضيقها سعة وعسرها يسرًا، فاستمتع أيها المؤمن بهذه المشاهدة العظيمة وداو بها أمراض همك وحزنك، وأبشر بقرب الفرج وتحقق وعد الله سبحانه .

وتأمل أدب يوسف عليه السلام مع ربه – عز وجل – في قوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، فقدّم مشيئة الله لأن الأمور كلها بيده، ومشيئته عز وجل هي النافذة، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وعلى العبد أن يمتثل أمر الله في تقديم مشيئته سبحانه بين يدي كل الأمور، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف : ٢٣-٢٤]، فهذا الاستثناء درك للحاجة وسبب لحصول المقصود، كما قال النبي ﷺ في شأن سليمان عليه السلام: « **ولو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون** »(١) .

وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي : على سرير ملكه، أجلسهم معه عليه إكرامًا لهما، وفي هذا بر الوالدين وتقديمهما، وقوله تعالى : ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي : أبواه وإخوته جميعًا الأحد عشر، وكان هذا السجود سجود تكريم، وكان مشروعًا لمن قبلنا حتى جاء شرعنا بنسخه، وجعل السجود لله وحده لا شريك له، فسجود التكريم كان مشروعًا لمن أمر الله بسجود غيره له، ما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وهو عبادةٌ لله سبحانه إذ هو امتثال أمره، وتكريمٌ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٦٦٣٩)، ومسلم (١٦٥٤) .

للمسجود له، وكان جائزًا للكبراء والسادة ونحوهم إذ لم يكن منهي عنه، أما في شرعنا فقد جاء النهي عنه، ولم يعد مشروعًا ولا مباحًا، لكن الواجب السجود لله وحده سجود العبادة، ولذا صار السجود في أهل الإسلام لا يعرف منه إلا سجود العبادة، فلو سجد أحد لأحد غير الله، لكان ظاهره أنه يعبده من دون الله، إلا أن يكون جاهلاً أو متأولاً أو مكرها، أو نحو ذلك من موانع التكفير .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « وفي الحديث أن معاذًا قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: « **ما هذا يا معاذ؟!** » ، فقال : إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال : « **لو كنت آمراً أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، لعظم حقه عليها** » (١) أ.هـ.

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ يعني : رؤياه وهو صغير، حيث رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رآهم له ساجدين، فالشمس : أبوه، والقمر : أمه، والأحد عشر كوكبًا : إخوته، هذا هو الصحيح إن شاء الله، وقيل : الشمس : أمه، والقمر : أبوه، وليس بظاهر، لأنه مراعاةٌ للتذكير والتأنيث المجازي، وترك للمعنى الأهم وذلك أن أباه عليه السلام هو الذي نوره كالشمس، وإنما كان النور لأمه من جهة أبيه عليه السلام .

ومعنى التأويل هنا ليس التفسير، لأن التفسير كان معلومًا، وإنما المقصود : وقوع المخبر به في هذه الرؤيا، وهو سجود أبيه وأمه وإخوته له، فإن تأويل الخبر وقوع المخبر به كقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٥٣] أي : يوم يقع ما أخبر

---

(١) صحيح : رواه أبو داود(٢١٤٠) ، وأحمد(١٨٩١٣) عن معاذ ، وابن ماجة(١٨٥٣) النكاح ، والترمذي(١١٥٩) عن أبي هريرة ، والحاكم عن بريدة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٩٢٩٤) .

الله به من القيامة، ولقد كانت الرؤيا متضمنة خبراً، فلما وقع الخبر كان هذا تأويل الرؤيا، وهو ما آل إليه أمرها، فتأويل الكلام : هو ما يصير إليه في حاله الثاني، فتأويل الأمر : فعل المأمور به، وأما الرؤيا فيطلق تأويلها على أمرين : -

الأول : تفسيرها وبيان حقيقة ما تدل عليه .

الثاني : وقوع ما دلت عليه الرؤيا .

فتأويل رؤيا يوسف عليه السلام على المعنى الأول : هو أن المقصود بالشمس والقمر والكواكب هم أبوه وأمه وإخوته، وأنهم يسجدون له .

وتأويلها على المعنى الثاني : وقوع ذلك بالفعل، وهو المقصود في هذه الآية الكريمة، والله أعلم .

وتأمل أدب يوسف مع أبيه - عليهما السلام - في قوله : ﴿ **يَا أَبَتِ** ﴾ التي سبق أن بينا ما فيها من انكسار الرحمة وإظهار المحبة والاحترام والتقدير في مقابلة سجوده له، فهو يعلم أن السجود الذي شرع لهم هو تكريم من الله له بحكم الملك والنبوة، لكنه يعرف فضل أبيه وقدره ومنزلته وما ينبغي له أن يعامله به من التوقير وخفض جناح الذل من الرحمة له، وقوله عليه السلام : ﴿ **يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** ﴾ فيه نسبة النعمة إلى الله وشهود تفضله به وشهود خلقه أفعال العباد، فالذي جعلهم يسجدون له، هو الله - سبحانه - ولم يقل يوسف عليه السلام « قد تحققت » مثلاً أو نحو ذلك، كعادة أكثر الناس في مثل هذا المقام وغيره، ينسون نسبة الفضل إلى الله وربما نسبوه لأنفسهم أو لغيرهم، وأنت تلاحظ هنا أن يوسف عليه السلام نسب كل الأفعال إلى الله - عز وجل - فقال : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ ، وقال : ﴿ **قَدْ أَحْسَنَ بِي** ﴾ فنسب الإحسان إلى ربه، وقال : ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ فنسب الإخراج إليه، ولم يقل خرجت،

وقال : ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ فنسب المجيء بهم إلى الله، ولم يقل جئتم، وختم الكلام بذكر لطفه ومشيئته وعلمه وحكمته، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن دائمًا ينسب النعم والفضل لمالكها وخالقها ومسديها – سبحانه وتعالى– .

وتأمل في قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أنه ذكر ربه باسم الربوبية (الرب) مضافًا إلى ضمير المتكلم ﴿ رَبِّي ﴾ ، وذلك لأن إصلاح ربه له منذ نشأته إلى ملكه إصلاحٌ خاصٌ وتربيةٌ خاصةٌ وكفايةٌ خاصةٌ يجدها يوسف عليه السلام ويشهدها من كل قلبه، فأنسب شيء للمقام أن يقول : ﴿ رَبِّي ﴾ ، والرب : هو المصلح لشأن غيره، والخصوصية هنا ظاهرة، والله أعلم .

وفي قوله : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ دليلٌ على أن السجن بلية، والإخراج منه إحسانٌ عظيمٌ من الله – سبحانه –، رغم أن السجن كان سُلَّمًا للملك ليوسف عليه السلام، لكنه في نفسه بلاء لا يُطلب ولا يُتمنى، ولكنه يصبر عليه، ويحتسب عند الله إلى أن يقع الإحسان من الله بالفرج والخروج، نسأل الله أن يفك أسر جميع أسرى المسلمين، وأن يحسن بنا وبهم ويخرجهم من السجون الظالم أهلها، وأن يجعل لنا من لدنه وليًا، وأن يجعل لنا من لدنه نصيرًا .

وفي قوله : ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ دليلٌ على أن الحياة في القرى والمدن من النعم، وأن الإنسان لا ينبغي أن يختار السكنى في البادية والصحاري إلا عند الضرورة من انتشار الفتن ونحو ذلك، فإن غلظ حياة الصحراء تؤثر على سلوك الإنسان وقسوة قلبه في الغالب إلا من رحم الله، وفي الحديث الذي حسنه الترمذي : « **من سكن البادية جفا** » (١)، وفي الحديث الآخر في عد الكبائر : « **والرجوع أعرابيًا بعد الهجرة** » (٢) .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٢٥٦) ، والنسائي (٤٣٠٩) ، وأبو داود (٢٨٥٩) ، وأحمد (٣٣٥٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » .

(٢) صحيح : رواه النسائي (٥١٠٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥) .

ولذا كان الرسل من أهل القرى لا من أهل البوادي كما سيأتي، والله أعلم، قال ابن جريج وغيره : كانوا أهل بادية وماشية، وقال : كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام .

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أدبٌ رفيعٌ ووفاءٌ بالوعد الذي وعد به إخوته : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، فجعل ما فعله إخوته به نزغًا من الشيطان، وقدّم نفسه أولاً تأنيسًا لهم وإزالة لجرح النفوس في هذا المقام، وما أحسن نسبة ما حدث إلى الشيطان بعد توبتهم ورجوعهم إلى الله سبحانه والاعتراف بخطيئتهم، وفي هذا أثر التربية الإيمانية في الصغر، فأبوه في صغره حين نهاه أن يخبر بالرؤيا إخوته فيكيدوا له كيداً، بَيَّنَ له أن كيدهم إنما يكون بوسوسة الشيطان فقال : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، فظلّت هذه الكلمة في نفس يوسف عليه السلام، فذكرها في هذا الموقف، ونسب فعل السوء إلى الشيطان ونزغه، وهذا أمر لابد أن يظل من المرء على بال حتى لا يغفل عن عداوة الشيطان، ولا يسمح لأحداث وقعت بينه وبين إخوته أن تبقى روح الحقد والانتقام إذا استشعر أنهم هم الذين فعلوا به، فأما إذا استحضر أنه نزغ الشيطان، وأنه وأخواته صف واحد في محاربته، كان ذلك الفكر بهذه الطريقة من أعظم أسباب عودة الألفة وزوال العداوة .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ إن القصة مليئة بأنواع اللطف الخفي والأسباب العجيبة لحصول ما قدّره الله، التي في بدايتها يظن الظان أنها تؤدي إلى نتائج أخرى عكس ما وقع، فقد جعل الله إلقاء يوسف عليه السلام في الجب إراحةً له من هم وغم حسد إخوته، وجعل بيعه رقيقًا الذي ظاهره الذل والهوان تمكينًا له في الأرض في حياة رغيدة هنيئة بعيداً عن قسوة البادية وجفاء الإخوة، وجعل

السجن طريقًا إلى ملكه ومكانته، وجعل مكر إخوته سببًا لفشلهم فيما أرادوا، وجعل الكرب الذي أصاب يعقوب عليه السلام وتضاعف عليه سببًا في الفرج، وجعل القحط والجدب الذي أصابهم سببًا للسعة والرخاء والعافية، وقدّر سبحانه من الأسباب لما يشاء ما تعجز العقول عن إدراكه، فاللطف فيه معنى الخفاء مع الإحسان والتفضل، فالله لطيف بعباده يرزقهم من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون، ويَمُن عليهم بفضله من حيث لا يشعرون، بل من حيث يظنون أحيانًا أنه حرمان وضرر، فإذا هو نفع وعطاء وخير .

فاللهم نسألك بلطفك وعفوك وكرمك أن ترزقنا النظر إلى وجهك، ومرافقة أنبيائك وأوليائك، وأن ترزقنا نعيم قربك، وأن تنور قلوبنا بحبك ومعرفتك وخشيتك، وأن تجعلنا من عبادك المخلصين .

ثم ختم يوسف عليه السلام كلامه مع أبيه بذكر الاسمين الكريمين من أسماء الله الحسنى اللذين ذكرهما له أبوه في صغره حين قص عليه رؤياه، فنسب كل خيرٍ إلى الله، وختم كلامه بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فقال يوسف عليه السلام في خاتمة كلامه : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

نعم والله، إنه هو العليم بمصالح عباده ولا يعلمونها، العليم بعواقب الأمور ولا يعلمونها، العليم بمن يستحق العطاء والإكرام والإنعام فيجتبيه ويعلمه ويتم نعمته عليه، العليم بما في قلوب عباده من الخير والشر وما يناسب كل عبد فيوفق كل عبد لما يناسبه، وهو الحكيم الذي أحكم الأمور كلها فهي في غاية الاتقان في خلقه وشرعه، الحكيم فهو الذي لا يشرع ولا يقدر شيئًا إلا لحكمة ومصلحة محبوبة له، حتى ولو تضمن القدر شيئًا مكروها له، لكنه يفضي إلى محبوب له أعظم مما لو قدر عدم المكروه فلا يحصل هذا المحبوب .

الحكيم في وضعه الأشياء في مواضعها التي يستحق الحمد عليها حتى أهل النار إذا دخلوا النار لا يستطيعون إلا أن يشهدوا حكمته فيكون حمد الله في قلوبهم لا يملكون غير ذلك، والاقتران بين الاسمين: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يفيد كمالاً ثالثًا على كمال كل منهما، فهو أحكم الأمور ووضع لها عللها ومصالحها وحكمها بعلمه الموصوف به أزلاً سبحانه وبحمده، فاللهم لك الحمد كما تقول وخيراً مما نقول، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، إنك أنت العليم الحكيم .

قال ابن كثير - رحمه الله -:

« قال أبو عثمان النهدي عن سلمان : كان بين رؤيا يوسف عليه السلام وتأويلها أربعون سنة، وعن الحسن قال : كان منذ فارق يوسفُ يعقوبَ - عليهما السلام - إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبدٌ أحب لله من يعقوب، وقال محمد بن اسحاق : ذُكِر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة أو نحوها، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف عليه السلام بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه » أ.هـ. وقد سبق عدم فائدة التحديد، وإلا لبيَّنه الله ورسوله ﷺ، إلا أن الأشبه من هذه الأقوال، قولان: ثمان عشرة، وأربعون، والله أعلم .

ثم التفت يوسف من الكلام مع أبيه إلى الثناء على ربه - عز وجل - ودعائه، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه عليه في تحقيق غايات أعلى بعد أن تحقق له كل ما يريد فقال تعالى عنه :

دعاء وتضرع

قوله تعالى : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ .

يتوسل يوسف عليه السلام إلى ربه سبحانه باسم الربوبية المضاف إلى ضمير المتكلم : ﴿رَبِّ﴾، وبشهود إيتائه إياه الملك وتعليمه من تأويل الأحاديث، فهو توسلٌ إلى الله بفضله وإنعامه على عبده، وتوسلٌ بشهود العبد ذلك وثنائه على الله به واعترافه بالنعمة، وهذا من أسباب قبول الرب لدعاء عبده وشكره لعمله، ثم توسل إلى الله بأنه فاطر السماوات والأرض أي : خالقهما على غير مثالٍ سابقٍ، وهذا يقتضي كمال ملكه ونفوذ أمره في السماوات والأرض، وإن شهود ملكوت السماوات والأرض لهو من أعظم أسباب حصول اليقين، ثم توسل إليه بأنه وليه في الدنيا الذي تولاه بنعمه وإكرامه وتوفيقه وإعانته، وهو الذي أخذ بقلبه إليه وملأه بحبه والإنابة إليه، وهو الذي تولاه باجتبائه واصطفائه بالنبوة، وهو الذي تولاه فقرّبه إليه، ومعنى الولاية فيها معنى القيام بالأمر، ومعنى القرب والمحبة، وهو وَلِيُّه أيضًا في الآخرة، فهو لا يريد سواه، ولا يتوكل على سواه، ولا يعد لفاقته وحاجته في دنياه وأخراه سواه – عز وجل –، وهو الذي يرجو تَوَلِّيه إياه بإدخاله الجنة في الآخرة، كل هذه التوسلات لتحصيل أعظم مطلوب : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، إن نعمة الإسلام هي والله أجل نعمة، وبغيرها ما كانت تحصل للعبد نعمة دينية أو دنيوية، إن راحة قلب المسلم وسعادته الحاصلة في الدنيا والمرجوة في الآخرة إنما كانت وتكون بنعمة الله بالتثبيت على هذا الدين، إن الملك والعلم وغيرهما من نعم الدنيا لا يمكن أن تُسعد الإنسان إلا مع نعمة الله بالإسلام، وكم أُعطي أناس من الملك وشقوا به ولم

يسعدوا، وكم أُعطى أناس من العلم وشقوا به ولم يسعدوا، وإنما النعمة الحقيقية هي نعمة الإسلام، تذكر في هذا الموطن أخي المسلم نعمة الله علينا بالإسلام التي ذكّرنا بها فقال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣]، فسوف تشعر أن أعظم مطلوب لك هو أن تظل مسلمًا إلى أن يتوفاك الله عليه، لتتم عليك النعمة في الدنيا والآخرة، والإسلام لله هو أعظم حظ يعطاه عبد، وهو حظه من ربه -عز وجل-، وهو يفتح له باب حظ آخر عظيم من أسباب النعيم، وهو صحبة الصالحين ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ، ووالله إن صحبة الصالحين في الدنيا من أسباب السعادة فيها، وسبب لذوق حلاوة الإيمان، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « **لولا ثلاث لما أحببت البقاء، لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقي أطايب الثمر** » ، وعن معاذ رضي الله عنه أنه قال عند موته : « **اللهم إنك تعلم أني لمن أكن أحب البقاء لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر** » ، ولولا ما في صحبة الصالحين من الخير الذي لا يدرك بغيرها لما أمر الله بها نبيه ﷺ بها مع من هو أدنى منه، وإنما أنعم الله عليه بالإسلام به ﷺ فقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨]، وصحبة الصالحين من نعيم أهل الجنة قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٩-٧٠] .

وقال إبراهيم عليه السلام وهو خير البرية بعد النبي ﷺ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٣]، وقال النبي ﷺ في احتضاره : « **اللهم**

في الرفيق الأعلى » (١).

وفي الحديث القدسي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« إن لله ملائكة سيارةً فضلاء يتتبعون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكْر قعدوا معهم وحفّ بعضهم بعضًا بأجنحتهم ، حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا تفرّقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، فيسألهم الله عز وجل - وهو أعلم - من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك ، قال : وماذا يسألوني ؟ قالوا : يسألونك جنتك ، قال : وهل رأوا جنتي ؟ قالوا : لا أي رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتي ؟ قالوا : ويستجيرونك ، قال : ومم يستجيروني ؟ قالوا : من نارك يارب ، قال : وهل رأوا ناري ؟ قالوا : لا ، قال : فكيف لو رأوا ناري ؟ قالوا : ويستغفرونك ، فيقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا ، قال : فيقولون : رب ، فيهم فلانٌ ، عبدٌ خطاءٌ ، إنما مر فجلس معهم - وفي رواية : ليس منهم إنما جلس لحاجة - ، فيقول : وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (٢) .

[رواه البخاري ومسلم] .

فإذا كانت مجالسة الصالحين تمنع الشقاء فكيف يفرط فيها ؟! فإنهم لما قرت أعينهم بالله ، قرت بهم كل عين ، وأنس بهم كل مستوحش ، وفرح بهم كل حزين ، وأمن كل خائف ، واطمأن كل مضطرب ، وإذا كان كلبٌ قد صحب الصالحين - أصحاب الكهف - ، فذكر معهم في كل موضع وصار ثامنهم ، فكيف بمؤمن يصحب المؤمنين ؟! فكيف بصحبة الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ؟ إذا كانت مصاحبة الأعلى للأدنى مأموراً به ، فكيف بمصاحبة الأدنى للأعلى ؟ وما أجمل قول قتادة في هذا الموضع عن يوسف عليه السلام : « لما جمع الله

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٤٤٣٦ ، ٤٤٤٩) المغازي ، ومسلم (٢١٩١) ، وأحمد (٢٤٤٢٥) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) الذكر والدعاء والتوبة ، واللفظ له .

شمله، وأقر عينه، وهو يومئذٍ مغموسٌ في نعم الدنيا وملكها ونضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله »، وذلك أنه تذكر أن كل لقاء في الدنيا فلا بد من موت وفراق بعده، كما في الحديث : « **يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه** » صحيح، فطَلَبَ يوسف عليه السلام الموت على الإسلام، واللقاء الذي لا فراق بعده عند الله -عز وجل- بصحبة الصالحين .

فمهما فاتك أخي المبتلي بالبعاد عن الأهل والأحباب، فتذكّر أن هناك لقاءً لا فراق بعده مع الصالحين عند الله، فاعمل لذلك، ومهما أتاك أخي المبتلي بصحبة الأهل والأحباب – وهو ابتلاءٌ بالخير – فإياك أن تطمئن إليه، واطلب ما هو أعلى وأدوم : ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ .

فائدة : تأمل في قوله عليه السلام : ﴿ **وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** ﴾ فـ ﴿ **مِن** ﴾ هنا للتبعيض، رغم أنه ما عرض عليه – في سياق قصص القرآن – رؤيا إلا أولها، وقال لصاحبيه في السجن : ﴿ **لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ** ﴾، ومع ذلك فلا بد أن يستحضر العبد أنه لا يعلم كل شيء، بل لا يعلم إلا ما علمه الله، فكل واحدٍ من البشر يعلم أشياء ويجهل غيرها، والمقام مقام تضرعٍ وانكسارٍ لله سبحانه، وحقيقٌ به أن يذكر ﴿ مِن ﴾ التي تفيد التبعيض، بخلاف ما لو حُذِفَتْ، فقال مثلاً : « وعلمتني تأويل الأحاديث » لكان خلاف الحقيقة في عدم الإحاطة بكل التأويل، وخلاف الأدب في هذا المقام، والله أعلم .

قال ابن كثير – رحمه الله – في هذه الآيات :

« هذا دعاءٌ من يوسف الصديق عليه السلام، دعا ربه – عز وجل – لما تمت نعمة لمّ الشمل عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه – عز وجل – كما أتم نعمته عليه في الدنيا، أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه، قاله الضحاك : وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوته

من النبيين والمرسلين – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين –، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع إصبعه عند الموت ويقول: « **اللهم في الرفيق الأعلى ثلاثًا** » (١)، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقض عمره لا أنه سأله ذلك منجزاً » أ.هـ.

وهذا هو الظاهر من السياق، لأنه ذكره عقب ذكر سجود أبيه وأمه وإخوته له وكلامه مع أبيه، فليس فيه ذكر الإحتضار، والله أعلم، وأما الاحتمال الثالث الذي ذكره وهو أنه سأل هذا منجزاً، وكان جائزًا في شريعتهم وغير جائزٍ في شريعتنا، ونقله عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي، فليس في القرآن والسنة بيان أن هذا كان ناجزاً، وأما مسألة تمني الموت فالأحاديث الصحيحة إنما نهت عن تمني الموت لضر نزل بالإنسان، كما في الصحيحين من حديث أنس، قال رسول الله ﷺ: « **لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان ولا بد متمنيًا الموت، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي** » (٢)، وأما سؤال الموت خوف الفتنة في الدين فلا مانع، كما قال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وفي حديث معاذ في رؤية النبي ﷺ ربه في المنام، وهو حديث اختصام الملأ الأعلى: « **وإن أردت فتنة بعبادك فاقبضني إليك غير مفتون** » (٣)، رواه الترمذي وحسنه، وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد، أن النبي ﷺ قال: « **اثنتان يكرههما ابن آدم يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب** » (٤).

---

(١) متفق عليه: سبق تخريجه ص(٢٦١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري(٦٣٥١)، ومسلم(٢٦٨٠)، وابو داود(٣١٠٨)، والترمذي(٩٧١)، والنسائي(١٨٢٠)، وابن ماجة(٤٢٦٥).

(٣) صحيح: رواه الترمذي(٣٢٣٣)، واحمد(٣٤٧٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٥٩).

(٤) صحيح: رواه احمد(٢٣١١٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع(١٣٩).

إعجاز القرآن ودلائل النبوة

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ .

بعد أن اكتملت القصة الرائعة بهذا السياق المعجز الذي يستحيل أن يوجد له مثيل، لا في قصص أهل الكتاب ولا في أساطير الناس وقصصهم، مع ما تضمنه من المعاني الإيمانية المتعلقة بتحقيق الإيمان بالله سبحانه وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالرسل والأنبياء، وبيان صفاتهم الجميلة التي تجعلهم أحب خلق الله إلى خلقه، وغير ذلك من المعاني الإيمانية التي سبق بيان بعضها، تأتي خاتمة السورة معجزةً أخرى في هذه التوجيهات الحكيمة البالغة الحكمة التي تقرر القضايا الكبرى التي يحتاجها الإنسان في سيره في هذه الحياة.

ووالله إن سورة يوسف لمعجزةٌ خالدةٌ باقيةٌ – ككل سور القرآن العظيم – وهو أعظم أدلة نبوة نبينا محمد ﷺ، بدأت هذه التوجيهات الحكيمة بتقرير قضية إثبات نبوة محمد ﷺ، استدلالاً بهذه السورة وما فيها من أنباء الغيب وإثبات وحي الله له ﷺ، وهذا لأن قضية النبوة هي مفتاح كل مسألة بعد ذلك، وهي سبب الانتفاع بهذا النور وهذه الحياة التي يتضمنها القرآن، وإذا لم يفتح قفل القلب بهذا المفتاح ظل ميتاً أعمى، لا يعرف توحيداً ولا إيماناً ولا نبوة، ولا بعثاً ولا حساباً ولا جزاءً ولا نوراً على الإطلاق، بل يزيده الوحي الذي هو النور والحياة طغياناً وكفراً، كما قال تعالى: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة : ٦٤] وذلك لعدم قبول القلوب الميتة المظلمة لأمر نبوة محمد ﷺ، فأغلقت عن أنفسها أبواب الخير والرحمة، واختارت الكفر والشقاء والتعاسة الأبدية .

كانت بداية هذه التوجيهات الإيمانية في خاتمة السورة بإثبات نبوة محمد ﷺ من إخباره بالمغيبات بهذه الطريقة الناصعة مع القطع بأنه لم يكن حاضرًا وقت القصة، ولا له علم ولا بكتب الأولين هو ولا قومه ولا هو يستطيع قراءتها لو كان له سبيلٌ إليها، وقد أخبر القرآن بتفاصيل الوقائع وما وقع حتى من خلجات النفوس وأنواع الخواطر واختلاف الأفكار والألفاظ التي استعملت، حتى كأنك حاضر الوقائع تشاهدها وتتأثر بها وتتفاعل معها بأسلوبٍ لا نظير له بالقطع واليقين .

فهذه القصة لدى أهل الكتاب في كتابهم الذي يسمونه المقدس في العهد القديم، فليقارن كل عاقلٍ منصفٍ – ولا أقول فقط كل مؤمنٍ – بين السياقين، وأثر كل منهما في النفس، والمعاني الإيمانية والتفاصيل المطلوبة، وما وقع عليه التركيز من الأمور ليجزم بلا تردد ولا توقف بأنه لا وجه للمقارنة، والله إن الفرق لأكبر مما بين الثرى والثريّا، مع اتحاد مضمون الوقائع في النهاية، وكل هذا من أوضح الأدلة اليقينية على نبوة محمد ﷺ، وفي الآية امتنانٌ على رسول الله ﷺ بإيحاء هذه السورة إليه، وهي والله منةٌ عليه وعلينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « يقرر تعالى لمحمدٍ ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، نوحيه إليك ونعلمك به يا محمد، لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن

خالفك، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: وما كنت حاضرًا عندهم، ولا مشاهدًا لهم إذ أجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب وهم يمكرون به، ولكن أعلمناك به وحيًا إليك وإنزالاً عليك، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٤-٤٦] وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: ٤٥] وقال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٩-٧٠] أ.هـ.

وهذه الآية الكريمة فيها ذمٌّ لمكر إخوة يوسف به، ضمن ما وقع من إعلام النبي ﷺ بهذا المكر، وإرشادٌ إلى النظر في عاقبة هذا المكر الذي هو التدبير في خفاء، ولكن لما كان مكرًا بالسيئات، كان بائرًا رغم ما توهّم أصحابه أنهم في أول أمرهم قد نجحوا في مخططهم، ووصلوا إلى غايتهم ولكن كيف كانت عاقبة الأمر ومآله ونهايته؟

كآياتٍ كثيرةٍ تؤكد على هذا المعنى، وتُطمئن المؤمنين وهم يتعرضون لأنواعٍ من المكر، يُدبر لهم في الخفاء وهم لا يشعرون، ولكن ربّهم مطّلعٌ عليه وهو محيط به وبأهله، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠-٥١]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]،

وكقوله تعالى عن نوح عليه السلام في شكواه قومه إلى الله – عز وجل – : ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا** ﴾ [نوح : ٢٢] أي : كبيرًا، وكقوله تعالى عن اليهود أعداء المسيح عليه السلام : ﴿ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ٥٤]، وقال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ عن المشركين : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة تبين كيف أن الباطل دائمًا يمكر بالحق ويفشل في النهاية، رغم قوة الباطل الظاهرة وضعف أهل الحق في الأسباب المادية، وما ذاك إلا لأن الله سبحانه يمكر بمن يمكر بأوليائه، ومَكْرُه -عز وجل- صفة كمال لائقة بجلاله وعظمته، منزهٌ عن النقص والظلم والسوء، لا يشبه مكر المخلوقين، وهو خير المكر، وهو إنما يمكر بمن يستحق أن يُمكر به، عدلاً منه سبحانه وحكمة .

وفي هذا ما يُطمئن قلوب المؤمنين، خصوصًا مع ضعف إمكانيتهم في معرفة مكر أعدائهم من الكفرة والمنافقين والظلمة، وفي مواجهته لو عرفوه، مع أن مكر الأعداء شديد : ﴿ **وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** ﴾ [إبراهيم : ٤٦]، فعلى الله يتوكل أهل الإيمان في دفع مكر الماكرين، ويفوضون أمورهم إليه إذ هو بما يعمل الكافرون محيط، ومكرهم في علمه – سبحانه – لا يغيب عنه شيء منه، وهو بصيرٌ به كما قال – سبحانه – عن مؤمن آل فرعون : ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر : ٤٤– ٤٥] .

فليبشر المؤمنون بأن تخطيط الكفار لهم لن يثمر ثماره، ولن يؤدي إلى نتائجه، ولن تتحقق أهدافه، فلله المكر جميعًا، يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار، ومن أعظم دليلٍ على ذلك ما وقع في قصة يوسف عليه السلام في مكر إخوته به، وكيف كان عملهم في باطن الأمر عملاً لرفعة

يوسف عليه السلام ونجاته من شر حسدهم وبغيهم، وكيف كان مكر امرأة العزيز والنسوة سببًا لعزّه وملكه من حيث أرادت ذلّه وسجنه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق : ٣] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ، وهو القدوة الحسنة لكل الدعاة بعده، عن عدم إيمان أكثر الناس، وهذه مسألةٌ عظيمة الأهمية في نفس الداعي، ومرحلةٌ مهمةٌ لابد أن تمر بها دعوة الحق، لها مصالح جمة وحكم بالغة، من أهمها : تحصيل عدم الزهد في القلة، وعدم الاغترار بالكثرة، وعدم بناء الأمور على الكثرة، قال تعالى : ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام : ١١٦]، وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٠]، وقال عن نوح : ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود : ٤٠]، فلابد أن يوطن الداعي نفسه على أن عليه العمل، وليس عليه النتائج، عليه البلاغ عن الله وعن رسوله ﷺ، وليس عليه الهداية .

ومن حِكَم ذلك وفوائده : تحصيل الإخلاص وإرادة الله والدار الآخرة، وذلك أن من يعمل ولا يجد في الدنيا ثمرة عمله ودعوته من إقبال الناس على دعوته، فإنه لا يؤمل ولا يرجو إلا رضا الله عنه وثوابه .

وإذا علم الداعي أن هناك من الأنبياء من لم يجبه أحد، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا : « **عُرِضَت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد** »(١) متفق عليه، ومع ذلك نالوا أجرهم عند الله كاملاً غير منقوص، فما عليه أن يهتدي الناس، وطالما أنه قام بما عليه من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ولم يكن

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠)، وأحمد (٢٤٤٤) .

فظًا غليظ القلب يؤدي إلى انفضاض الناس من حوله، وكانت دعوته نقيةً بيضاء لم يَشُب الحق فيها شائبة تؤدي إلى انصراف الفطر السليمة عنها، فلا يعبأ بما عليه الناس .

ومن حِكَم ذلك : أن يوقن أهل الإيمان وأهل الدعوة أن النصر ليس من صنعهم، فإنهم قد مرّ عليهم وقت يفر الناس فيه من الحق فأين كانوا هم حينئذ ؟ وما كانوا يملكون لأنفسهم ولا لدعوتهم نصرًا وتمكينًا، بل حتى حمايةً وجوارًا من الأذى، فإذا آوى الله عباده المؤمنين القليل المستضعفين في الأرض، وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات، فعند ذلك لا يقولون : « انتصرنا »، « فعلنا »، « خطّطنا »، « نفذّنا »، بل يقولون : « هذا من فضل الله علينا وعلى الناس »، فيشكرون الله على نعمته ويشهدون فضله بها : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

ومن حِكَم ذلك : أن يُعلم أن هذا الدين لا يقوم بالغوغاء، وأنه لابد من إعداد طائفةٍ مؤمنةٍ تُرَبّى على الحق، وتؤهل لقيادة الأمة، بل العالم، وحين تستكمل سمات الشخصية المسلمة في أفرادها، والتي أساسها تحقيق الإسلام والإيمان والإحسان، علمًا وعملاً وحالاً، ودعوة وصبرا وثباتًا، وحين تقوى الروابط بين أفرادها حتى يصيروا كجسدٍ واحدٍ، حبًا وتعاونًا وأداءً لفروض الكفاية أو تأهلاً لذلك، فسوف يحصل لها التمكين من الله سبحانه .

أمّا أن نظنّ أن دعوة الإسلام يمكن أن تقيمها الجماهير الغفيرة التي لم ترب التربية الإيمانية، وإنما تحركها عاطفةٌ بلا علم، وحركةٌ بلا بصيرة، وتقليدٌ أعمى للقادة، فهو ظنٌ فاسدٌ جاهلٌ بدعوة الأنبياء وطريقهم، وهذه الجماهير ما أسرع ما تنجرف وراء ناعقٍ جديدٍ ينحرف بها إلى الأهواء المضلة والشهوات المغوية،

فينهار العمل ويقطف الثمرة - إن كان هناك ثمرة - الأعداء والمنافقون وأصحاب المنافع والمصالح الدنيوية .

إنّ الجماهير تدخل في الدين أفواجًا بعد أن يقوم على الأعمدة الراسخة من المؤمنين، إن الزلازل والفتن تكثر في أخر الزمان، فهل يصح أن يبنى بنائنا بلا أعمدة ؟ إن أول زلزال سوف يهدم البناء فوق رؤوسنا، ونكون نحن المقصرين لأننا غرتنا الجموع الكثيرة التي لم تهيئ ولم تربَّ على القرب من العلماء العاملين، ولم تختبر صفاتها حتى ينظر في صلاحيتها لتحمل المسؤلية، وإذا لم نستفد من بيان القرآن : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، وسيرة رسول الله ﷺ والأنبياء قبله، فلا نلومنّ إلا أنفسنا، ونسأل الله العافية .

ومن حِكَمِ قلة المؤمنين في بداية الدعوة : أن يوقن الداعي أن نجاح الدعوة ليس لفصاحته ولا لبلاغته ولا حسن إسلوبه ولا لشدة حرصه، فلن يكون في شيء من ذلك أشد من النبي ﷺ، بل ولا مماثلاً له، بل ولا قريبًا منه، ومع شدة حرصه ﷺ واجتهاده وكمال عبوديته، مرت الدعوة بهذه المرحلة، ولم يؤمن أكثر الناس، ولم يهدي من أحب .

فليوقن الداعي بذلك، وليشهد فقره وعجزه عن هداية الناس، فإذا اهتدى على يديه أحد فلا يقل لنفسه ولا لغيره : « أنا الذي دعوت »، « أنا الذي علّمت »، « أنا الذي ربّيت »، « أنا الذي صبرت وضحّيت »، فهذا باب فسادٍ خطيرٍ في قلب الداعي وقصده، وهو بداية العُجب ثم الكبر والمنّ على الخلق، ثم التنافس على الدنيا باسم الدين والحقد والحسد، نعوذ بالله من ذلك كله .

ومرور الدعوة بمرحلة القلة والضعف يغلق هذا الباب، لأن المؤمن يتذكر هذه المرحلة، ويتذكر حاله فيها من ضعف القوة وقلة الحيلة والهوان على الناس، وأنه لم يكن بيده ساعتها أن يغير هذا الواقع، ولا حتى يعلم متى يتغير - وإن كان

موقنًا بوعد الله –، إلا أنه لا يدري أيكون موجودًا على ظهر الأرض ساعة تغيره، أم يكون قد رحل عنها، فلله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، ووَعْدُ الله هو لمجموع الطائفة المؤمنة، ولا يلزم أن يدرك آحادها ذلك في حياتهم، بل بالقطع يسقط الكثيرون شهداء في الطريق قبل الوصول، فإذا تذكّر المؤمن ذلك لم يغتر بعمله ولا بعلمه ولا بدعوته ولا بجهاده، فكانت هذه المرحلة من أهم وأنفع المراحل للدعوة والداعي .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ بيانٌ لحرص النبي ﷺ على إيمان أكثر الناس، وقد دلت أدلةٌ كثيرةٌ على شدّة حرصه ﷺ على ذلك مثل قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء : ٣] أي : مهلك نفسك، وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[فاطر : ٨] وقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[النحل : ٣٧] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[يونس : ٩٩] .

وهذا مما ينبغي أن يكون عليه الداعي إلى الله ومعلم الناس الخير، فهدفه الأول أن يهتدي الناس، وأن يعرفوا ربهم ويحبوه، وهو يحرص على ذلك لأنه المأمور به شرعًا، حتى ولو كان يعلم أن القدر قد مضى بغير ذلك، فالحرص على هداية الخلق امتثالٌ للشرع، ولكن شهود القدر يمنع الإحباط واليأس والحزن والكآبة، التي إذا وقعت في نفس الداعي أقعدته عن العمل، وأبطلت دعوته وسعيه، فعليه أن يُبلغ الحق وليس عليه أن يهتدي الناس، عليه أن يحرص على هداية الخلق، وإذا رأى غير ذلك عَلِمَ أن من ورائه حكمةً بالغةً ومصالح باهرة يحمد الرب عليها، فله الحمد على كل حال ولا يُحمد على مكروه سواه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ بيانٌ لأصلٍ عظيمٍ في دعوة

الأنبياء، وهو أنهم لا يأخذون أجرًا من الخلق على دعوتهم، وهكذا خُلَّصُ أتباعهم، وهذا من أعظم أسباب استجابة الناس للدعوة، لأنهم فُطروا على أن من لم يسألهم أجرًا فهو يحب الخير لهم، فهم يقبلون ما جاءهم به، قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]، وقال تعالى عن نوح: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقال عن هود: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ . [هود: ٥١].

وقال فى سورة الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب أن كلاً منهم قال لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠]، وقال - عز وجل - عن مؤمن آل ياسين في استدلاله على قومه فى وجوب اتباع الرسل: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١]؛ ولما كانت هذه القضية عظيمة الأهمية في استجابة الخلق، كان حرص كثير من أهل الباطل على العمل الذي يسمونه (خيريًا) ليتوصلوا به إلى إقناع الناس بدعوتهم الباطلة، ففِرَقُ المُنَصِّرين وجماعاتهم إنما تدخل إلى قلوب الجهلة والسذجة في أماكن متفرقة من العالم بالعمل التطوعي بلا أجر.

وما أكثر الدجالين المشعوذين والسحرة والكهنة الذين يروج أمرهم على العامة لأنهم لا يأخذون أجرًا، وإن كانوا عند التأمل يحصلون على مصالح مادية هائلة، بالطرق الخفية من خلال الجاه الذي يحصل لهم بسبب عملهم «بلا أجر»، أفلا يعي هذه الحقيقة أتباع الأنبياء من العلماء والدعاة؟ ويعلمون أن دعوتهم إنما تجد أبواب القلوب مفتوحة بقدر ما أخلصوا عملهم لله والدار

الآخرة، ولم ينتفعوا من دعوتهم بشيء من حطام الدنيا ؟

وفي الأثر الإسرائيلي : « يا ابن آدم عَلِّم مجانًا، كما عُلِّمت مجانًا »، ولو تأمّلت العلم الحقيقي النافع الذي ورثته الأمة، هل أخذ أحد من أهله على تعليمه للناس أجرًا ؟ فهؤلاء الصحابة ﷺ علّموا التابعين، وكانوا جميعًا يعلّمون مجانًا بلا أجرٍ منهم، ولا من الدولة الإسلامية، وكذا كان جهادهم وفتوحاتهم، ومن بعدهم التابعون وتابعوهم، ومن بعدهم الأئمة والعلماء .

فهؤلاء أئمة المذاهب الأربعة الكبار : أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، ما أخذ أحدٌ منهم أجرًا قط على تعليمه العلم، ولا كانت وسيلة كسبه ومعاشه تعليم الناس، وانظر إلى البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأهل الحديث، كم أخذوا على كتبهم ورحلتهم في طلب العلم، وغيرهم كثيرٌ كثيرٌ تجدها قاعدة مطردة : أن العلم الحقيقي لم يكن قط وظيفة يُتكسب منها .

إنّ أَخْذ الداعي أجرًا على دعوته، والعالم أجرًا على علمه، أو أن تكون هذه وظيفته التي يتكسب منها، يمنع عنه خيرًا كثيرًا، ويُطفيء كثيرًا من النور الذي تحمله دعوته، كما أنه لابد أن يكون تابعًا - بدرجةٍ ما - لمن يدفع له الأجرة، فيفقد قدرًا من استقلاليته، وتجرده في البحث والفتوى والتعليم والدعوة، إن لم يفقده بالكلية فيصير تابعًا للباطل لا متبوعًا في الحق، ويصير - كما نرى علماء السوء في كل زمان - يُفَصِّل الفتاوي على حسب الأهواء، ويتحكم فيه المال والشهرة والشهوة، فيضيع الحق من قلبه ولسانه، والعياذ بالله، ونسأل الله العافية .

فعلى الداعي أن يجتهد أن يكون مصدر كسبه لمعاشه أمرًا آخرًا، غير الدعوة إلى الله وتعليم الناس الخير، ولو تحمّل في سبيل ذلك شظف العيش والفقر، بل ذلك إن شاء الله إن وقع من أسباب قبول دعوته إذا علم الناس عدم إقباله على الدنيا، وإن كان آخذًا ولابد، فليكن من بيت المال، أو من الدولة

المسلمة إذا اضطر إلى التفرغ للدعوة، وتعذر عليه أن يجمع بين وجه للكسب مع دعوته، ويأخذ قدر الكفاية .

فهذا هو الأصل، وليس أن يكون العمل الدعوي وسيلة للتربح والغنى وبناء القصور وفتح الأرصدة والعيش في أبهة الغنى، فإن ذلك من أعظم أسباب انصراف الناس عن الدعوة ولو كانت حقًا، فضلاً عن ضياع الأجر عند الله سبحانه .

ولابد أن ننتبه هنا للفرق بين مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وبين مسألة أخذ الأجرة على الدعوة إلى الله، وإن كان بينهما قدرٌ مشتركٌ، إلا أن هناك فرقًا مهمًا، وهو أن جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن - على قول من يجوزه وهم الجمهور - مشروطٌ بما لم يتعين عليه تعليمه، وكذا غيره من أنواع العلوم، فأمّا ما صار فرض عينٍ على المعلم أن يُعَلِّمه، كمن لا يَعْلَم التوحيد ولا يوجد إلا واحد يُبَلِّغُه له، وكمن لا يحسن الصلاة أوقراءة الفاتحة ولا يوجد إلا واحد يقوم بذلك، فلا يجوز له أن يمتنع من التعليم إلا ببذل الأجرة، بل يلزمه أن يبذله له من غير عوض، والله أعلم .

وأكثر مسائل الدعوة من هذا الباب، أما مسألة جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، فمسألةٌ خلافيةٌ، ذهب مالك والشافعي -رحمهما الله- إلى الجواز، استدلالاً بقول النبي ﷺ : « **إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله** »(١) رواه البخاري، وذلك في حديث الرقية بالقرآن، وكذا حديث الواهبة نفسها، قال النبي ﷺ : « **اذهب فقد زوجتكها بما معك من كتاب الله** »(٢) متفق عليه، وفي رواية : « **فعلمها من القرآن** » وهذه أدلةٌ ظاهرةٌ، وذهب أبوحنيفة إلى منع أخذ الأجرة على الطاعات مطلقًا، استدلالاً بحديث أُبي بن كعب قال : علّمت

---

(١) رواه البخاري (٥٧٣٧).

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٥١٣٢)، ومسلم (١٤٢٥) بلفظ: **مَلَّكْتُهَا بما معك من القرآن.**

رجلاً القرآن فأهدى لي قوسًا، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: « **إن أخذتها أخذت قوسًا من نار، فرددتها** » (١)، ورغم المقال الذي فيه إلا أن لها شواهدًا تقوي معناه .

وذهب الإمام أحمد إلى عدم جواز المشارطة، وجواز أخذ الجعل من غير مشارطة، ولا شك أن الأحوط قول أبي حنيفة، والأقوى دليلاً قول مالك والشافعي – رحمهما الله تعالى –، وعلى أي حالٍ، فلا شك أن العمل الإسلامي لن يقوم علمًا وتعليمًا ودعوة وجهادًا، إلا على من لا يسأل الناس أجرًا وهم مهتدون .

وقوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾ يتضمن قضية عظيمة الأهمية بالنسبة إلى فهم المؤمن والداعي، خصوصًا لحقيقة هذا الدين وحدود دعوته، ألا وهي قضية عالمية الإسلام، فهو قد جاء ليعم الأرض كلها، دعوةً في البداية وسلطانًا في النهاية، وقد بعث محمد ﷺ رحمةً للعالمين، ولابد أن تصل الرحمة إلى جميع العالم، لا تختص بقومٍ دون قومٍ، ولا بلدٍ دون بلدٍ، فليس هناك (شئون داخلية) للأمم لا دخل للمسلمين بها، إن دعوة الإسلام هي دعوة النوع الإنساني بأسره، ورسولهم محمد ﷺ رسول إلى الإنس والجن: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وأرض الإسلام التي يجب على المسلمين أن يحرروها من احتلال عبّاد الطواغيت هي الكرة الأرضية كلها، إن الأرض أرض الله، والخلق كلهم عباد الله، فلابد أن يَعْلوهم شرعه ودينه، فمن شاء بعد ذلك أن يكفر فلا يحق له أن يفرض

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة(٢١٥٨) وصححه الألباني في إرواء الغليل وصحيح ابن ماجة(١٧٥١) عن أبي بن كعب و(١٧٥٠) عن عبادة بن الصامت .

كفره على غيره، وعلى أجيالٍ من البشر قادمة، يعمى عليها الحق، ويلبس بالباطل والخداع الذي يسمى الإعلام، وما هو إلا (تجهيل) وتزوير، حتى يرى الناس الحق باطلاً، والنور ظلامًا، وأشقى طرق الحياة هي الطريقة المثلى كما قالها آل فرعون: ﴿ **إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ** ﴾ [طه : ٦٣]، ولكي يحجب عن الخلق نور الهدى الذي جاء به محمد ﷺ، وليعيش البشر أسوأ – والله – من حياة البهائم، بل حياة الشياطين، فهل من ظلمٍ للبشرية أشد من أن تترك هكذا محرومة من هذا الدين إذا تصور أصحابه – وليسوا حينئذ بأصحابه حقًا – أن دعوتهم قاصرة على أممهم وبلادهم، الأمر الذي لو وجد عند الصحابة ﷺ لما دخل الناس في الإسلام؟

إن عالمية دعوة الإسلام نابعةٌ من حقيقة الغاية التي خلق من أجلها البشر، وهي عبادة الله – عز وجل –، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات : ٥٦] فلا يجوز أن يُحرم الإنسان من هذا الذكر، الذي يتذكر به العالم حقيقة الحياة والوجود والبداية والنهاية، وكيف يعيش الحياة التي أرادها خالقها ومبدعها سبحانه .

إن عالمية دعوة الإسلام نابعةٌ من حقيقة القرآن، وأنه الكتاب الذي أنزله الله ليحكم بين الناس – كل الناس – فيما اختلفوا، وأنه النور المبين الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

إن حق البشرية في الرحمة المهداة ﷺ حقٌ متساوٍ لكل إنسان، مكفولٌ لكل طلبه، مثل الهواء والماء وضوء الشمس، لأنهم لو حرموا هذه الأشياء لضاعت عليهم حياة أبدانهم، وهي حياة يسبقها الفناء ويعقبها الفناء، وأما إذا حرموا من

الوحي الذي جاء به محمد ﷺ خاتم الأنبياء، ضاعت عليهم حياتهم الأبدية التي هي حقيقة الحياة ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر : ٢٤]، فضلاً عن ضياع سعادتهم في حياتهم الدنيا، وحصول الشقاء والتعاسة من كل وجه، ولو نالوا كل الشهوات .

وإذا استحضرنا أن سورة يوسف من السور المكية التي نزلت على رسول الله ﷺ وهو محصور بمكة، والدعوة لم تجد بعد الأرض التي تؤوي أصحابها بها، بل هم قليلٌ مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، ومع هذا تنزل هذه الآية، وأمثالها في القرآن كثير، كقوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص : ٨٧–٨٨] في سورة ص وهي مكية، وقوله : ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم : ٥٢] في سورة القلم وهي مكية من أوائل ما نزل – نزلت بعد المدثر –، وقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] في سورة الأنبياء وهي مكية، وكذا قوله : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف : ١٥٨] في سورة الأعراف وهي مكية، وإذا استحضرنا ذلك كله علمنا أن هذه القضية بُيِّنت أوضح بيان من بداية الدعوة، وفي أول طريقها المحفوف بالمكاره، بغض النظر عن إمكانية التطبيق في هذا الوقت، إنها لابد أن تكون واضحة في أنفس المؤمنين والدعاة، خصوصاً منذ البداية ليستعدّوا بالهمة العالية والعزيمة الصادقة على السير في الطريق الطويل، حتى ولو لم تكن وسائل السير وطرق تحقيق هذا الأمر ظاهرةً في الأفق .

إن هذه الأمة تُهيَّئ لتقود العالم بأسره، وللشهادة على الناس، فلابد أن يعرفوا دورهم وحجمهم الحقيقي، وحجم العبء الذي كلفوا به ليعدوا للأمر عدته، إنهم لو ظنّوا أن حدود دعوتهم – مثلاً – جزيرة العرب، لكانت همتهم وبالتالي سعيهم على قدر ذلك، وكذلك لو ظن العاملون في العمل الإسلامي

اليوم أن دورهم هو – مثلاً – مسجدهم أو حيهم أو مدينتهم وقريتهم أو حتى إقليمهم، فستكون همتهم وبالتالي سعيهم على قدر ذلك .

ولكن إذا أيقنوا أن الإسلام هو ذكرٌ للعالمين، وأن دورهم في توصيله – نقيًّا كما جاء به رسول الله ﷺ – إلى أهل الأرض كلهم، كانت همتهم وبالتالي سعيهم على قدر ذلك، إن هذا الفهم هو الذي جعل الصحابة رضي الله عنهم ينطلقون في المشارق والمغارب نشرًا للإسلام، وجهادًا لإعلاء كلمة الله، وتعليمًا وتربيةً للأمم والشعوب حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وإنّ هذه الهمة التي جعلت مثل عقبة بن نافع يقف على شاطئ الأطلس بجواده (١)، ويدخل المحيط خطوات مبينًا رغبته في أن يخوض غمار هذا البحر المحيط، لو يعلم وراءه أرضًا ينشر فيها الإسلام ويجاهد في سبيل الله .

وهي التي جعلت مثل صلاح الدين بعد أن ينتصر على الصليبيين يحدث نفسه ورفاقه أنه ينوي أن يركب البحر ليصل إلى عمق بلد الفرنجة، ويجاهد في سبيل الله حتى لا يبقى أحدٌ يعبد غير الله إلا أسلم أو دفع الجزية، قد تكون الإمكانيات في بعض الأحوال تحول دون تطبيق ذلك، لكن لابد أن يظل الشعور بلزوم نشر الإسلام في العالمين كلهم وتذكيرهم جميعًا بكتاب الله حيًا في القلوب مُوَرَّثًا عبر الأجيال، فإن صراع المناهج والملل لا تحسمه القوة المادية، فإن موازين القوى تتغير في لحظات، وإنما يحسمه حال القلوب وعزمها وصدقها وثباتها ويقينها .

إن الإنكسار الحقيقي الذي يريده الأعداء ليس هو كسر الجيوش والأفراد ولو وضعوهم في السجون وكبلوهم بالقيود، وإنما يريدون كسر النفوس والأفكار والمعتقدات، وإنما يريدون أن يركن أهل الإسلام إلى باطلهم، فينطفئ النور الذي

---

(١) قال : « والله يا بحر لو أعلم أن وراءك أرضًا تفتح في سبيل الله لخضتك بفرسي هذا » .

يعمّهم فيحلّ الظلام الذي يريده الأعداء : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠]، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢-٣] .

تحضرني في هذا المقام قضية تتعلق بهذه المسألة، وهي العلاقة بين الإمكانيات والقدرات وبين تغير المعتقدات تبعًا للإمكانيات لا تبعًا للأدلة والبراهين، ونمثل ذلك بمسألتين :-

المسألة الأولى : مسألة جهاد الطلب، فالمسلمون اليوم عاجزون في معظم الأحيان حتى عن جهاد الدفع، فبلادهم محتلة، وشرع الله عن مجتمعاتهم مغيب، ودعاة الإسلام الحق مضطهدون محاصرون، ومع ذلك فهل نقبل في ظل انعدام الإمكانيات إلى هذا الحد الأقوال الباطلة، بأن الإسلام لا يعرف إلا جهاد الدفع، وأنه – مثلاً – يحترم سيادة الدول وعدم التدخل في الشئون الداخلية حتى ولو كانت كافرةً ظالمةً ؟ وأن الإسلام لا يهدف إلى أن تعم كلمة التوحيد الأرض كلها ؟ وأنه يحترم ما يسمونه بالشرعية الدولية، والتي أكلوها حين جاعوا وداسوا بقاياها بأقدامهم ؟ أو أننا ينبغي أن نترك استعمال لفظ (الكفار) في وصف المخالفين، بل نقول (غير المسلمين) وأضعاف هذه المقالات المنكرة التي حقيقتها الركون إلى الذين ظلموا ؟! وهل نقبل أن نوصل إلى الأجيال بعدنا إسلامًا ناقصًا مشوهًا، نُغفل فيه الأدلة القاطعة بأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل سواه، وأن القرآن ذكر العالمين ؟ أم نتحمل ونصبر على عقيدتنا وكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ونوصلها لمن بعدنا، ممن بالقطع واليقين سيكون منهم من يقدر على تنفيذ وإقامة هذه الأوامر وينشر دين الله في الأرض ويجاهد جهاد الدفع وجهاد الطلب بإذن الله تعالى ؟ وإن كان لابد لنا من الانتباه أن عقيدتنا الراسخة بقوله

تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة : ٣٦]، وقوله : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]، لا يعني أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، ولا نحسب قوة أعدائنا أو أن نذعرهم علينا وعلى أمتنا بأعمال هي أشبه بالأعمال الدعائية التلفزيونية لنقنع أنفسنا أننا نصنع شيئًا، وفي الحقيقة ندمر بلاد المسلمين ونستجلب عليهم أنواع المضار من غير نفع، لأننا لم نسلك الطرق الشرعية، ونأخذ بالأسباب شرعًا وكونًا، ونفهم واجب كل وقت ومهمة كل مرحلة، فلا يحاول من يَحْبُو أن يقفز كل درجات السلم مرة واحدة، وهو بَعْدُ لم يتعلم المشي .

ولابد لنا أن نعلم أن التربية على معاني الإيمان والإسلام والإحسان هي أساس العمل في كل المراحل، وبدونها لن يتقدم المسلمون خطوة واحدة، والله المستعان .

والمسألة الثانية التي نمثل بها : مسألة الجزية، فالمسلمون اليوم ليس لهم في بلادهم كمال السلطان على ثرواتهم، بل أموالهم بأيدي أعدائهم وهم الذين يفرضون عليهم أنواع التصرف في ثرواتهم بما يحقق مصالح الأعداء، ومع هذا الحال الذي لا يتصوّر فيه أن يطبّقوا قول الله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩]، وجدنا من يقول أن الجزية أمر قد مضى عهده وانتهى، وأنه إنما كان لأزمنةٍ خاصةٍ كان التعامل الدولي وقتها مبنيًا عليها، ولهذا أقرها الإسلام، أما الأن فلا يتصور المطالبة بالعمل بها، ولا ينبغي أن نقول عن غير المسلمين في المجتمع المسلم (ذمّيون)، بل هم (مواطنون)، ومقولات أخرى تتنكر لأدلة قاطعة من الكتاب

والسنة وإجماع سلف الأمة وخلفها في كيفية معاملة الكفار في الدولة المسلمة وخارجها، حتى صار في المسلمين من يستحي من طرح هذه الأمور، ويستنكرها غاية الإنكار، وكأنّ في الأمر احتمال للخلاف، أو أنه ليس مذكوراً في القرآن والسنة المتواترة والإجماع القطعي عند أهل العلم .

فنحن وإن عجزنا عن تطبيق ذلك في وقت ما ومكان ما، لكن لابد أن يظل اعتقادنا بلزوم تطبيق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بفهم سلف الأمة لا يزعزع، وإذا عجزنا عن شيء منه فهو يسقط عنا لعدم القدرة، لا لأنه غير لازم أو نقبل فيه التحريف والتبديل، ففرض الجزية على غير المسلمين في الدولة المسلمة أمرٌ لا يحتمل التبديل والتغيير، ولننقل الآيات والأحاديث والوثيقة العمرية لأهل بيت المقدس عند فتحها لمن بعدنا على أنها شريعةٌ حتمية التطبيق عند القدرة على ذلك، كما كان رسول الله ﷺ يعلم صحابته كتاب الله الذي فيه : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ، وربّاهم على أن مهمتهم هي نشر الإسلام في العالم كله، وهم بعد محاصرون بمكة لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم الأذى من المشركين، إن الركون إلى الذين ظلموا هو افتراء غير الحق في دين الله، وليس عليهم العمل بما يعجز المرء أو الطائفة المؤمنة عنه، وإنما يحصل الانحراف والتبديل إذا قبلنا تحت ضغط الواقع أن نتنازل عن شيء من عقيدتنا ومنهجنا ودعوة الحق التي بأيدينا .

فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ويا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك، ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

ومن أهم لوازم صفة العالمية للإسلام أنه لا يعرف فواصل بين الأمم والشعوب، فالناس كلهم في لزوم الالتزام به وفي التفاضل بينهم وفي المجازاة بأعمالهم في الدنيا والآخرة سواء لا تفاضل إلا بالتقوى، ولا فضل لعربي على

عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فالنعرات القومية والوطنية والقبلية والحزبية وسيادة لون أو جنس على سائر الأجناس كلها من دعوى الجاهلية التي وضعها رسول الله ﷺ تحت قدميه يوم عرفة في حجة الوداع، فيجب أن تكون كذلك عند كل مؤمن ومسلم، لا أن يضعها فوق رأسه، والمجتمع المسلم لا يُبنى على صراع طبقاته بين أغنياء وفقراء أو عمال وفلاحين ورأسماليين أو غير ذلك، بل يُبني على الحب في الله للمؤمنين والبغض في الله للكافرين، « **والمسلمون تتكافؤ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم** » (١) كما قال رسول الله ﷺ، وإن كان ذلك لا يعني ظلم الكفار الذميين أو المستأمنين أو المعاهدين، فقد كفل لهم الإسلام حقوقهم بما شرعه الله، وسَنَّه رسوله ﷺ، وطَبَّقه خلفاؤه الراشدون، فهم - بعهدهم - آمنون على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، لا يُكرهون على ترك دينهم طالما وفّوا بشروط العهد أيًا كان نوعه، كما ذكرنا ذمةً أو أمانًا أو عهدًا .

كما أن صفة العالمية تجعل قضية المسلمين في كل أرض قضيةً واحدةً، فهم يتناصرون في الدين على تباعد أقطارهم واختلاف لغاتهم وتباين أجناسهم، وانتهاك حرمة مسلم أو أرض إسلامية في مكان هو عدوان عليهم جميعًا، يجب عليهم التناصر على دفعه وإغاثة المظلوم الأقرب فالأقرب، حتى إذا لم يندفع العدو إلا باجتماعهم جميعًا تعيّن عليهم ذلك، وهذا من أعظم ما يقلق أعداء الإسلام ويحاولون جاهدين تمزيق قضايا المسلمين بين أجناسهم ودولهم، كما اصطنعوا هم تلك الحدود الفاصلة بين أجزاء الأمة الواحدة حتى يقاتل بعضهم مع بعض، وهذه الروح التي تشعر بالمسلمين بحقيقة جسدهم الواحد كما بينه الرسول ﷺ من أعظم ما يُقوى قلوبهم في مواجهة عدوهم، وما أثر مشاركة المسلمين

---

(١) صحيح : رواه النسائي (٤٧٣٤، ٤٧٣٥) ، وأبو داود (٣٧٥١) ، وابن ماجة (٢٦٨٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٦٦) .

إخوانهم في أفغانستان والبوسنة وغيرها في إحياء قضاياهم وبث روح الصبر والثبات في صفوفهم بخافٍ على أحد، بل ظاهرٌ للولي والعدو، مما جعل همة الأعداء منصبة على قتل هذه الروح ومحاولة إذهابها من نفوس المسلمين، إذ هي تقف حجر عثرة في مواجهة مخططاتهم خاصة أعداء الله اليهود ومن والاهم من النصارى والمشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ بيّنت الآيات السابقة شدة حرص النبي ﷺ على إيمان الناس، وبيّنت معجزات باهرة وآيات بينة له ﷺ تقتضي إيمانهم ومع ذلك فأكثرهم لا يؤمن، فكانت هذه التسلية لرسول الله ﷺ، فالآيات التي جاء بها واضحةٌ جليةٌ، ولكن كم من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، فكذلك إعراضهم عن ما حدثتهم به من آيات الله في الكون ، الآفاقية منها والنفسية : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] من لم ينتفع بها ويتعظ لم ينتفع بالمعجزات الحسية، فآيات الله في خلق الإنسان من الماء المهين، وتحوله في أطوار خلقه إلى أن يصبح إنساناً أعظم من تحول العصا إلى حية، وخلق السماوات والأرض وطلوع الشمس كل يوم من مشرقها إلى مغربها أعظم من خروج اليد بيضاء للناظرين، ولذا بدأ موسى عليه السلام بالآيات الكونية قبل المعجزة الحسية فقال : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الدخان : ٧]، وقال : ﴿ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٦]، و قال : ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٨]، ولمّا أعرضوا عن هذه، أعرضوا عن كل المعجزات الحسية بعدها، فمن أراد أن يؤمن فتكفيه آيات السماوات والأرض إن كان موقناً بشيء، ومن أراد الإعراض فسيعرض عن كل الآيات .

والقرآن هو الذي يدلنا على هذه الآيات الكونية والنفسية بأوضح دلالة ينتظمها انتظامًا، ويُوقظ في قلب الإنسان الوعي لما حوله من الأدلة، ويُحيي في قلبه الفهم والتدبر لحقيقة الحياة والوجود والموت وما بعده والهدف من وجوده في الحياة وعلاقة الدنيا بالآخرة وسائر معاني الإيمان، فيستنير ويشرق الحق فيه، فمن أعرض عنه فلابد أن تكون له المعيشة الضنك والشقاء والتعاسة في الدنيا والآخرة .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « يُخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السماوات والأرض من كواكب زاهرات، ثوابت وسيارات، وأفلاكٍ دائرات والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطعٍ متجاورات، وحدائق وجنات، وجبالٍ راسيات، وبحارٍ زاخرات وأمواجٍ متلاطمات، وقفارٍ شاسعات، وكم من أحياءٍ وأموات، وحيوان ونبات، وثمراتٍ متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحدالأحد خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات » أ.هـ.

* * *

التحذير من الشرك

قوله تعالي : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ .

فطر الله العباد علي الميل إليه وإلي توحيده وذوق حلاوة ذلك والراحة به : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠]، قال النبي ﷺ : « **كل مولودٍ يولد علي الفطرة** – وفي رواية : **علي هذه الملة** – **فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه** »[1] متفق عليه، وهم كذلك مفطورون علي كراهية الشرك والتألم به ووجد مرارته وهمه والضيق به، ومع ذلك، ومع بيان الرسل الكرام، أكثر الخلق أشركوا بالله وتحملوا أفظع الألم، ألم الإنقطاع والبعد عن محبته، وذاقوا مرارة الباطل واستمروا علي تجرعها، كيف حدث ذلك؟ وكيف خدعهم الشيطان حتي أشقاهم هذا الشقاء مع ما ينتظرهم من العذاب الأبدي والشقاء السرمدي ؟

إنها الطريقه الإبليسية القديمة المتكررة التي استعملها مع الأبوين حين قاسماهما إني لكما لمن الناصحين، فأظهر تعظيم الله بالقسم به ليخدعهما، فلبّس الحق بالباطل، وهكذا خدع قوم نوح، فلبّس حق حب الصالحين واتّباعهم بباطل الغلو فيهم وإطرائهم فوق منزلة العبودية، وهكذا خدع أهل الكتابيين من قبلنا، فلبّس حق حب الأنبياء واتّباعهم بباطل الغلو فيهم بعبادتهم من دون الله وكذا الأحبار والرهبان .

فإن الباطل لا يمر إلا بشئ من الحق يذهب مرارته ويسوغه للناس، الباطل المجرد لا يقبل ولا يحتمله البشر، لابد أن يمزج بشئ من الحق، السم مرٌّ فظيعٌ

---

[1] متفق عليه : رواه البخاري(١٣٨٥) ، ومسلم(٢٦٥٨) ، والترمذي(٢١٣٨) ، وابو داود(٤٧١٤) .

الطعم لا يقبله أحد حتي يوضع في العسل، فلنتنبه جيدا لهذه المسأله لأن أكثر الناس يستجيبون للباطل لوجود حق معه، وأهل النفاق بضاعتهم في هذا السوق رائجة، فهم العدو الذين يجب أن نحذرهم لأجل هذه المسألة، فحق إظهار التوحيد ممزوج بفتن شبهاتهم وشهواتهم وأمراضهم، التي بها صاروا دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، وهم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا، قلوبهم قلوب شياطين في جثمان إنس، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ .

فيخبر الله تعالي في هذه الأية الكريمة أن أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا مع شركهم به .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « قال ابن عباس : من إيمانهم : أنهم إذا قيل لهم من خلق السماوات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟، قالوا :الله، وهم مشركون به، وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك »، وفي الصحيح : أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ : «**قد قد**» أي : حسب لا تزيدوا علي هذا، وقال الله تعالي : ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان : ١٣] وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه، قلت : يا رسول الله : أي الذنب أعظم؟ قال : « **أن تجعل لله نداً وهو خلقك** »(١)، وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ قال : « ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك، يعني قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [النساء:١٤٢] » أ.هـ.

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٤٤٧٧، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٧٥٢٠)، ومسلم (٨٦)، والترمذي (٣١٨٢)، والنسائي (٤٠١٣)، وابو داود (٢٣١٠) .

وهذا القول في تفسير الآية أنه الشرك الأكبر هو الظاهر في سبب نزولها ووقته، إذ السورة مكية والخطاب عن المشركين المعرضين من آيات الله في السماوات والأرض المكذبين لرسول الله ﷺ، وعلى ذلك فإيمانهم الذي آمنوا من الإقرار بخلق الله للسماوات والأرض وخلقهم هم قد حبط وبطل لاقترانه بالشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥]، فالشرك يحبط الإيمان والعمل، لا يُقبل معه إقرار ولا اعتراف ولا عمل، ومنه النفاق الأكبر كما فسره به الحسن، وهو داخل في عموم الآية وإن لم يكن موجوداً وقت نزولها .

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا الإيمان لا أثر له ولا يثاب صاحبه عليه لأن الشرك أبطله وأحبط أثره، وشرط انتفاع الإنسان بأصل الإيمان بقاؤه وعدم حبوطه بالشرك الذي قامت به عليه الحجة، وهذا مثل معرفة إبليس وإقراره بأن الله خلقه وخلق آدم، وأنه يبعث الناس يوم القيامة، وأنه الذي يحيي ويميت ويُنظر من شاء: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤]، ومع ذلك فهو أكفر الكافرين، وكذا يقين فرعون وآله بآيات الله التي جاء بها موسى، وعلمهم بأنها نزلت من عند الله، ومع ذلك لوجود الإباء والاستكبار والجحد الظاهر لم ينفعهم اليقين والعلم الباطن، وفي هذا أوضح رد على الجهمية وغلاة المرجئة القائلين أن الإيمان هو المعرفة، وجوّزوا أن يكون الإنسان ناطقًا بالكفر فاعلاً للشرك وهو في حقيقة الأمر مؤمن، بل كامل الإيمان عندهم .

ولو التزم أحدٌ منهم إيمان إبليس وفرعون وقومه لكان كافراً خارجاً من الملة بإجماع أهل العلم، فإن كُفر هؤلاء معلوم من الدين بالضرورة، فالشرك الأكبر لا يجامع أصل الإيمان النافع في القلب، بل لا يجامع شيئًا من الإيمان إلا على سبيل الإحباط، وإذهاب الأثر كالعدم وإن لم تزل من القلب المعرفة بالكلية، بل ولو لم يزل نطق اللسان بالتوحيد كالنفاق الأكبر كما ذكرنا، وبالتالي فلا يجوز بحال أن يطلق اسم الإيمان على من لبس إيمانه بالشرك الأكبر الذي قامت به الحجة .

وهذا القيد – وهو قيام الحجة – إنما ذكرناه لأن أدلة الشرع كتابًا وسنةً وإجماعًا دلت على أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة، وأن من ارتكب شيئًا من الكفر أو الشرك الأكبر مخطئًا من غير قصد كالذي قال: « **اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح** »(١)، أو ناسيًا من غير ذكر (كمن نسي آيةً من القرآن غير متذكر لها)، أو إكراهًا من غير اختيار لقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، أو جاهلاً من غير بلاغ الحجة لقوله تعالى: ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، أو متأولاً تأويلاً يعذر فيه لعدم مخالفة المعلوم من الدين بالضرورة في حقه كفعل الصحابة الذين شربوا الخمر مستحلين لها تأويلاً باطلاً لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣]، فلم يكفّرهم عمر، بل أقام عليهم الحجة ثم جلدهم الحد لما أقرّوا بالحق، وكذا من وقع منه صغيرًا غير بالغٍ أو مجنونًا غير عاقلٍ أو نائمًا، فكل هؤلاء من وقع منه شرك أكبر قد قام به أحد هذه الموانع، وكان عنده أصل الإيمان والإقرار بقلبه ولسانه، وفي قلبه الانقياد للشرع لو علمه أو ذكر به أو نحو ذلك من زوال الموانع، لم يكفر ولم يحبط أصل إيمانه، وكان حكمه كحكم أهل الكبائر المستحقين للعقاب إن قصروا في طلب العلم الواجب عليهم، لكن لم تقم عليهم الحجة ولم ينقضوا أصل الشهادة بالإقرار بعبادة غير الله، وهذا فرقٌ مهمٌّ جدًا بين مشركي العرب ونحوهم ممن حكم القرآن عليهم بالشرك والكفر وكذا السنة والإجماع، وبين من يقع في الشرك من المنتسبين للإسلام – خفي على كثير من المتأخرين –، وهو أن مشركي العرب وغيرهم يقرون على أنفسهم بعبادة غير الله والشرك به، وأنهم يتخذون مع الله آلهة يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، فهؤلاء

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٧).

زال منهم أصل التوحيد حتى لو لم تصلهم الحجة ولم تبلغهم دعوة الرسل، وإن حدث ذلك ــ فهم كفار غير معذبين في الآخرة حتى يمتحنوا بالأمر بدخول النار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها سحب إليها «**كما دلت عليه أحاديث الإمتحان الثابتة الصحيحة**» (١) ، وأما من يقع في الشرك من المسلمين اليوم فهم لا يقرون بعبادة غير الله، ولا يدرون أنهم بفعلهم الشرك يتخذون الأنبياء والأولياء وأصحاب القبور آلهة من دون الله أو مع الله، وإذا قلت لهم أتعبدون غير الله نفروا من ذلك أعظم النفرة، ولو سألتهم عن إلههم لأجابوا بأنه الله لا إله إلا هو، فهذا الجهل الناشيء عن عدم بلاغ الحجة لهم يمنع من تكفيرهم كأعيان وإن كانت أفعالهم شركية فإذا أقيمت الحجة وأزيلت الشبهة لزمهم حكم الشرك وحبط إيمانهم بما اعتقدوا أو قالوا أو فعلوا من الشرك والكفر وهذا بخلاف النوع الثاني من الشرك وهو الشرك الأصغر، وهو داخل أيضًا في عموم الآية وإن كان مخالفًا لسبب نزولها ووقته كما ذكرنا ويختلف أيضًا حكم إيمان من ارتكبه فإنه لا يحبط إيمانه بالكلية ولا يخلد صاحبه في النار بل حكمه حكم أصحاب الكبائر من أهل القبلة حتى ولو كان من ارتكبه قد قامت عليه الحجة .

فالرياء محرم بالكتاب والإجماع والحجة قائمة به على أكثر الخلق، ومن ارتكبه بعد قيام الحجة - في غير النطق بكلمة التوحيد - لم يكفر بل بنص رسول الله ﷺ هو الشرك الأصغر حيث قال : « **أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال الرياء** » (٢) صحيح .

ولكن يحبط عمله الذي راءى به ولا تحبط كلمة التوحيد، وأما إذا راءى بالشهادة فهذا النفاق الأكبر المخلد في النار والعياذ بالله، وقد ذكر السلف في

---

(١) صحيح : رواه أحمد (١٥٨٦٦) ، وابن حبان عن الأسود بن سريع وأبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٨١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (٢٣١١٩، ٢٧٧٤٢) عن محمود بن لبيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٥٥) .

عموم هذه الآية أنواعًا من الشرك الأصغر واستدلوا بالآية على تحريمه ومنعه تغليظًا وتشديدًا ولأن من فعله فقد شابه المشركين في بعض أفعالهم وصفاتهم فيستحق شيئًا من عقابهم وإن لم يلزم أنه يعاقب بكل عقابهم فهو يستحق دخول النار ولا يخلد فيها .

فمجامعة الشرك الأصغر لأصل الإيمان لا تحبطه بالكلية ولكن تمنع الخلود في النار فهو ينتفع ببعض النفع لا النفع التام، ويزول عنه الإيمان الكامل وجوبًا، الذي يستحق صاحبه دخول الجنة لأول وهلة .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « وثَم شرك آخر خفي لا يشعر به غالبًا فاعله، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال : « دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرًا فقطعه - أو انتزعه - ثم قال : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٦] » (١) .

وفي الحديث : « **من حلف بغير الله فقد أشرك** » (٢) رواه الترمذي وحسنه في رواية ابن عمر﵄، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الرقى والتمائم والتوله شرك** » (٣) وفي لفظ لهما : « **الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل** » (٤) .

---

(١) صحيح : ذكره ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٩٥) وسكت عنه ، حماد بن سلمة : قال فيه ابن حجر هو ثقة عابد اثبت الناس وتغير حفظه بآخره ، وقال عنه الذهبي ثقة صدوق يخلط وليس في قوة مالك توفى سنة ١٦٧ هـ ، وروى له أبو داود والترمذي والبخاري تعليقًا ومسلم والنسائي وابن ماجة .

عاصم ابن أبي النجود : هو عاصم بن بهدلة الأسدي الكوفي ابو بكر المقريء وهو من الذين عاصروا صغار التابعين قال عنه ابن حجر صدوق له أوهام حق في القراءة ووثقه الذهبي وقال عنه الدارقطني في حفظه شيء، توفى عام ١٢٨ هـ ، روى له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

(٢) صحيح : رواه أبو داود (٣٢٥١) الأيمان والنذور ، وأحمد (٥٣٥٢) ، والترمذي (١٥٣٥) بلفظ « **فقد** كفر أو أشرك » ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٤) .

(٣) صحيح : رواه أبو داود (٣٨٨٣) الطب ، وابن ماجة (٣٥٣٠) ، وأحمد (٣٦٠٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٣٢) .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجة (٣٥٣٨) الطب ، وأحمد (٣٦٧٩) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦٠) .

وروواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال : حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة، عن يحيى بن الجزار عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود ﵁ قالت : « كان عبد الله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح، وعندي عجوز ترقيني من الحمرة، فأدخلتها تحت السرير، قالت : فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطًا فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الرقى والتمائم والتولة شرك** » ، قالت : فقلت له : لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت، فقال : إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، وإنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ : « **أذهب البأس، رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا** » (١) .

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى ابن عبد الرحمن قال : دخلنا على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده، فقيل، لو تعلقت شيئًا ؟ فقال : أتعلق شيئًا وقد قال رسول الله ﷺ : « **ومن تعلق شيئًا وكل إليه** » (٢) رواه النسائي عن أبي هريرة .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « **من علق تميمة فقد أشرك** » (٣)، وفي رواية : « **من تعلق تميمة فلا أتم**

---

(١) صحيح : رواه احمد (٣٦٠٤) بلفظ « **إلى جنبي** » بدل « **جانبي** » وبلفظ « **إنما ذلك عمل الشيطان** » بدل « **إنما ذاك من الشيطان** » ، وبلفظ « **أذهب البأس** » بدل « **البأس** » ، وبلفظ «**أشف**» بدل « **واشف** » ، وأبو داود (٣٨٨٣) مختصراً ، وابن ماجة (٣٥٣٠) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٥٥) .

(٢) ضعيف : رواه أحمد (١٨٣٠٤) ، والترمذي (٢٠٧٢) ، والنسائي (٤٠٧٩) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٠٢) ، وضعفه في غاية المرام (٢٨٨) .

(٣) صحيح : رواه أحمد (١٦٩٦٩) ، والحاكم عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٩٤) .

الله له، ومن تعلق ودعه فلا ودع الله له » (١)، وعن العلاء عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» (٢). [رواه مسلم].

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك** » (٣) رواه الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً ؟** » (٤) وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لهيعة، أنبأنا ابن هبيرة، عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**» ، قالوا: يا رسول الله، وما كفارة ذلك؟

---

(١) **ضعيف**: رواه أحمد (١٦٩٥١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٧٥٠٣)، وفي السلسلة الضعيفة (١٢٦٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجة (٤٢٠٢) بلفظ « فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك ».

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (٣١٥٤)، وابن ماجة (٤٢٠٣)، وأحمد (١٥٤١١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢).

(٤) **صحيح**: سبق تخريجه ص (٢٨٩).

قال : « أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك » (١) .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العذرمي، عن أبي علي - رجل من بني كاهل - قال : خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل »، فقام عبد الله ابن حزن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت، أو لنأتين عمر مأذونًا لنا أو غير مأذون، قال : بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « **يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل** »، فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : « **قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه** » (٢) وقد روى من وجه آخر، وفيه أن السائل في ذلك هو الصدِّيق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن معقل بن يسار، قال : شهدت النبي ﷺ أو قال : حدثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل** »، فقال أبو بكر : وهل الشرك إلا من دعا مع إلهًا آخر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل** »، ثم قال : « **ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم** » (٣) .

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن شيبان بن فروخ، عن يحيى بن كثير

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٧٠٠٥) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٤) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (١٩١٠٩) بلفظ (ونستغفرك لما لا نعلم) بدل (ونستغفرك مما لا نعلمه) ذكره ابن كثير في تفسيره وسكت عنه (٢/ ٤٩٦) .

(٣) صحيح : رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده (٥٨) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٩٥٤٧) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع عن أبي بكر (٣٧٣١) .

عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق ﷺ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا** » قال : فقال أبو بكر : يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال : « **ألا أخبرك بشيئ إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟** » قال : بلى يا رسول الله، قال : « **قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم** » (١) .

قال الدارقطني : يحيى بن كثير هذا، يقال له أبو النضر متروك الحديث، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم، سمعت أبا هريرة قال : قال أبو بكر الصديق ﷺ: يا رسول الله علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي قال : « **قل : اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيئ ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه** » وزاد الإمام أحمد في رواية له من حديث ليث بن أبي سليم عن مجاهد، عن أبي بكر الصديق، قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أقول فذكر هذا الدعاء وزاد في أخره : « **وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم** » (٢) أ.هـ.

يتحصل من الأحاديث التي نقلها الإمام ابن كثير – رحمه الله – في الشرك الأصغر أنواع منها :

[١] تعليق السير أو ربط الخيط أو تعليق الودع ونحوها من الأشياء وكذا التمائم .

---

(١) صحيح : رواه البغوي ، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣١) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي (٣٣٩٢) ، وأبو داود (٥٠٦٧) ، وأحمد (٥٢) واللفظ له بدون الرواية الأخيرة التي زادها أحمد (٨٢) ، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨١٣) .

[٢] الحلف بغير الله .

[٣] الرقى المحرمة والمجهولة والتولة وهي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته وهو من جنس السحر .

[٤] الطيرة : وهي التشاؤم (ومثله : التفاؤل) بالطيور (ومثلها : الأرقام وبعض الحيوانات والنباتات) وليس من ذلك الفأل بالكلمة الطيبة وليس بغيرها .

[٥] الرياء : وهو طلب رؤية الناس لعمله الصالح (ومثله السمعة)، وطلب أعراض الدنيا بعمل الآخرة .

ولا بد هنا من الإنتباه إلى أنه وإن كان الغالب على هذه الأنواع الشرك الأصغر الذي لا يخرج من الملة، إلا أنه أحيانًا يكون الشرك أكبر، وذلك بأن يعتقد في الشيء المعلق من خيط أو حلقة أو نحوه من التمائم أنها تنفع وتضر بذاتها من دون الله أو مع الله، فيكون شركًا أكبر في الربوبية، ويكون تعليقها لجلب نفعها أو لتدفع هي الضر عنه شركًا في الألوهية، والعياذ بالله .

وكذا إذا اعتقد أن الطيور تأتي بالخير أو بالشر بذاتها من دون الله أو مع الله، فهذا شرك أكبر في الاعتقاد، أما إذا اعتقد أن هذه الأشياء أسباب أو علامات على حصول الخير أو الشر أو الضر أو النفع من عند الله، فهذا شرك أصغر، لأنه كذب على الشرع وكذب على القدر، لأن هذه الأشياء لم يدل دليل شرعي على كونها أسبابًا أو حتى علامات، واعتقاد أنها أسباب أشد من اعتقاد أنها علامات، ولا دليل كوني قدري من التجربة الظاهرة لا ادعاء تجربة خفية، فإن الأسباب الخفية غير الظاهرة لا يصلح في اعتبارها أسبابًا إلا لدليل شرعي، وكل هذا ذريعة إلى الشرك الأكبر فيكون شركًا أصغر، ومن هذا ما انتشر عند الناس من لبس حلقة مغناطيسية يزعمون أنها تعالج بعض الأمراض، وإن حاول البعض أن يثبت لها سببية ظاهرة، وهو عند أهل الخبرة نوع من الدجل والخداع، وطالما لم يثبت

هذا الأمر بالتجربة الظاهرة لا مجرد دعوى السببية فلا يقبل، فيكون من هذا النوع المحرم، والله أعلم (١) .

والحلف بغير الله الغالب عليه أنه يجري على اللسان من غير قصد تعظيم المحلوف به كتعظيم الله، وإن كان مجرد الحلف بالمخلوق نوع تعظيم، إلا أنه إذا كان يعظمه كتعظيم الله أو أشد كمن يقال له احلف بالله فيحلف كاذبًا، فإذا قيل له احلف بالصليب أو المسيح أو الشيخ الفلاني تلعثم وامتنع وأقر بالحق، وكالذي يتوجه له على خصمه اليمين فيعرض الخصم الحلف بالله، فيقول لا أقبل الحلف بالله حتى يحلف بصاحب القبر الفلاني وعند قبره، فيقسم بحق هذا الغالب الطالب (يعني أن صاحب القبر سوف يغلب من يحلف به كاذبًا وسوف يطلب الحق منه)، فهذا من الشرك الأكبر بلا شك، لأنه يعظمه أشد من تعظيمه لله – عز وجل –، ويعتقد فيه أنه ينتقم ممن حلف به كاذبًا أشد من انتقام الله وعقوبته لمن حلف به كاذبًا .

وأما الرقى فإن كان يعتقد أنها تنفع بذاتها، أو كان فيها كلام مجهول أو توسلات بدعية محرمة، فهي شرك أصغر، وأما إذا كانت الرقى بالأدعية الصحيحة والتوسلات الشرعية لله وأسمائه وصفاته وباللغة العربية أو بما يعرف معناه من غيرها، وهو يعتقد أن الله هو الشافي النافع الضار، فهي مشروعة جائزة مستحبة في حق الراقي، والأولى للإنسان أن لا يطلب الرقية من غيره تكميلاً للتوكل، وسبق بيان أن الرياء في النطق بكلمة الشهادة شرك أكبر، وفيما دونها شرك أصغر، والله أعلم .

وليراجع في ذلك وفي بيان أنواع أخرى من الشرك الأصغر والكفر الأصغر، كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – وشروحه، والله أعلم .

---

(١) راجع كتاب فضل الغني الحميد : فصل بيان أنواع من الشرك .

فائدة :

حكم الشرك الأصغر حكم الكبائر عند جماهير أهل العلم، وإن كان من أغلظها كما روي عن ابن مسعود ﷺ : « لأن أحلف بالله كاذبًا أهون عليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا »، وعلى هذا فصاحب الشرك الأصغر في المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، وربما كانت الحسنات الماحية والمصائب المكفرة والاستغفار ماحياً لهذا الشرك، والقول بالموازنة بين الحسنات والسيئات هو الذي تجتمع به الأقوال، بخلاف الشرك الأكبر فلا يوازنه شئ ولا يمحوه شئ إلا التوبة منه، طالما قد قامت على صاحبه الحجة كما قدمنا .

وشذَّ شيخ الإسلام ابن تيمية فقال أن الشرك الأصغر لا يغفر، بمعنى أنه لا بد أن يعذب صاحبه وإن لم يخلّد في النار، وهو قول مردود بالأحاديث الصحيحة التي ذكرها ابن كثير – رحمه الله –، وسبق نقلها من مشروعية الاستغفار من هذا الشرك الأصغر، رغم عدم العلم والشعور به اللازم في التوبة، فقول النبي ﷺ : «قل :اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم» (١)، دليل واضح على أن الاستغفار مما لا يعلم يمكن أن يذهبه وأن يغفره الله، ونصوص السنة وأقوال السلف أن قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] هو في الشرك الأكبر، كما قال رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة : « فأقول يا رب لم يبق إلا من حبسه القرآن » (٢) أي : وجب عليه الخلود .

وإنما وجب الخلود على المشركين شركًا أكبر بهذه الآية، فلا يصح أن يقال بوجود عمل (هو الشرك الأصغر عند ابن تيمية) داخل في عموم الآية، ثم صاحبه لا يخلد في النار، بل الصواب أن الشرك الأصغر داخل في عموم قوله

---

(١) صحيح : سبق تخريجه ص (٢٩٣) .

(٢) رواه البخاري (٧٤٤٠) بلفظ : « ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن » اي وجب عليه الخلود .

تعالى : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦]، والشرك إذا أطلق قصد به الأكبر إلا بدليل، أو نقول هو يعم الأكبر والأصغر، لكن إذا خص الدليل الأكبر فيخرج منه الأصغر، فالآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] يقصد بها الأكبر بدليل السنة المذكور وكلام السلف فيها، والله أعلم .

* * *

التحذير من الأمن من مكر الله

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

ينكر تعالى على من أمن مكره وعذابه مع تلبسه بما يستوجبه من الكفر والمعاصي فقال : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ ﴾ أي : أمر يغشاهم من عذاب الله ، ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ أي: القيامة ، ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي: فجأة ، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ ، ولأن الموت يفضي بالعبد إلى الآخرة وما فيها ، وشعوره ببقائه في القبر إذ قام في القيامة كأنه ساعة ، سمّى رسول الله ﷺ الموت ساعة الإنسان فقال : « **إن يعش هذا الغلام لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم** » (١) رواه مسلم ، وإنما أراد انخرام ذلك القرن ، أي : موت هذا الجيل ، وقد تكرر في القرآن والسنة التحذير من الأمن من مكر الله ، قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

[النحل : ٤٥-٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧-٩٩] وفي حديث ابن مسعود :

« من الكبائر الأمن من مكر الله ، واليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله » (٢) .

والأمن من مكر الله وعقابه يلزم منه زوال الخوف من القلب ، ولو زال بالكلية

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٢) وليس فيه لفظ الغلام وإنما كان يشير إلى الغلام .

(٢) صحيح : سبق تخريجه ص (٢٢٣) .

لزال الإيمان بالكلية لقوله تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ولو نقص نقص الإيمان، ولو تأمل العاقل حقيقة حياته وموته وأنه في الأرض أو في السماء لا يملك شيئًا لنفسه، ولا يملك شيئًا من الكون حوله في نومه ويقظته، وأن الموت يأتيه بغير اختياره، أيقن أنه لا يأمن مكر الله وعذابه إلا خاسر مغبون مغرور جاهل، نعوذ بالله أن نأمن مكره، ونسأله – عز وجل – أن يؤمنا من عقابه وعذابه بفضله ورحمته .

من فقه الدعوة إلى الله

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ أي : يدعو إليه على بصيرة أيضًا، وقيل : أنا ومن اتبعني على بصيرة، وعلى كلا الوجهين، فالآية تدل على وجوب الدعوة إلى الله، وأن البصيرة من الفرائض . وفي قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ تنبيهٌ على أن التوحيد : تنزيه لله عن المسبه، إذ الشرك مسبة لله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ مع قوله : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فيه تنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثير من الناس لو دعا إلى الله فهو يدعو إلى نفسه .

وهذه الآية الكريمة فيها بيان جملة من أصول الدعوة إلى الله ما أحوج الدعاة إلى الله إلى معرفتها والعمل بها، وإليك بعض ما تضمنته هذه الآية من أصول الدعوة الصحيحة :

قوله : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي ﴾، انظر كيف وحد السبيل إليه وهو سبيل الرسول ﷺ، لأن طريق الحق واحد لا تفرق فيه ولا اختلاف، بخلاف سبل الباطل، فإنها كثيرة متنوعة على رأس كل منها شيطان يدعو إليه، ويقود أتباعه إلى النار، وهكذا يجب أن يكون كل الدعاة إلى الله في طريق واحد ومنهج واحد، هو الإسلام الحق الذي بعث به رسول الله ﷺ، وكان عليه الصحابة والسلف ﷺ، الذي تميز عن طريق البدع والضلالة التي كثرت وافترقت، كما قال رسول الله ﷺ في الفرقة الناجية : « وهي الجماعة » (١) .

---

(١) صحيح : رواه ابو داود (٤٤٢٩) ، واحمد (٤ / ١٠٢) ، من حديث معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه ، وابن ماجة (٣٩٩٣) ، من حديث انس رضي الله عنه ، و صححه الالباني في صحيح الجامع (٢٠٤٢) .

وقال ﷺ : « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة** » (١) .

فأصحاب الحق هم أهل السنة والجماعة، ومنهجهم الواضح لا يجوز أن يفترق بين الناس، أو يبتعدوا عنه، والتعدد الحاصل بسبب الاختلاف في المنهج - بين موافق ومخالف لطريقة السلف - تعدد مذموم، وشر على الدعوة والدعاة، وتفرقة للقلوب، وبث الضغينة والحسد، والغيبة والنميمة، وإنما يتحمل وزر ذلك أهل البدع الذين خالفوا سبيل الحق الواحد، ثم على أهل السنة والجماعة في كل قطر من الأقطار، بل في كل مكان أن يكونوا معًا في هذه السبيل، هكذا كان رسول الله ﷺ وصحابته أمة واحدة، وطائفة واحدة متعاونين على البر والتقوى، كما أمرهم الله، فما بال كثير من الناس اليوم يحبذ الفرقة، وهو يعلم ما عليه المسلمون من تضييع الواجبات العينية والكفائية ؟! ولا شك في عجز الأفراد عن القيام بهذه الواجبات، مع تباعدهم وتفرقهم، وعدم انتظامهم في سلك واحد، ولا تقوم دعوة من الدعوات - ولا عُلِم في سنة الله الكونية ولا الشرعية - دعوة قامت بغير تعاون، ووحدة، وائتلاف، فكيف يتسنى لأهل منهج الحق أن يتفرقوا، ويكون غيرهم أحرص على الاجتماع منهم ؟! نسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين .

وقوله تعالى : ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ فيه نسبة هذه الدعوة إلى الله تعالى، وما أشرفها من نسبة، ولكن لا يتحقق هذا الانتساب فتكون الدعوة دعوة ربانية، حتى تكون ربانية في أصلها ومصدرها، وفي طريقها ومنهجها، وفي غايتها ومقصدها :

أولا : أصلها ومصدرها : بأن ترجع إلى الوحي المنزل من عند الله كتابًا

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (٤٤٤٣) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجة (٤٢) ، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وصححه الالباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦) .

وسنّة؛ فإن نقاء الأصل في نقاء الثمر، وصحته، وقوته، قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وأما الدعوات التي تتخذ من المناهج الكلامية، أو الطرق الفلسفية، أو آراء الرجال، أو تحكمات لعقول مصدراً لها، فهي لا تستحق أن تكون دعوات ربانية.

ثانيًا: الطريق والمنهج والوسائل: لابد أن تكون ربانية كذلك على منهج الأنبياء، فالغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة بل الوسيلة من عند الله، كما أن الغاية إليه وحده، وسيرة الرسول ﷺ، وسيرة من قبله من الأنبياء فيها البيان لوسائل الدعوة، وطريقها، وما يقدم، وما يؤخر، وما هي موازين المصالح والمفاسد؛ حتى لا تختلط الأمور وتلتبس الأحوال.

ثالثًا: الغاية والمقصد: فلابد أن يكون وجه الله، والدار الآخرة لا غير، وذلك من خلال العمل، لإعلاء كلمة الله في الأرض، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وليس التمكين في الأرض لطائفة الدعاة بغاية مقصودة لهم، بل هي من وسائل الدعوة لتحقيق العبودية لله في أكمل صورها، وهو منّة من الله ليست بيد الدعاة، ولا من كسبهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] وقد لا يتحقق التمكين، فلا بأس على الدعاة؛ لأن وسائل تحقيق العبودية كثيرة والحمد لله، وإنما المهم أن لا يقصروا فيما يجب عليهم مما يقدرون عليه، وأما الدعوات التي تجعل غايتها التسلط على رقاب الناس، أو الظفر بهم للانتقام منهم، أو السعي وراء الملك والجاه، والثروة والراحة؛ تخلصًا من المطاردة، والاستضعاف، والفقر،

والخوف، فليست بالدعوات الربانية، والمسلم الرباني عبد لله في كل أحواله، وأوقاته فقيراً كان أو غنياً، ممكنًا أو مستضعفًا، مظلومًا في ظلمات السجون أو ملكًا ممكنًا على رؤوس الناس، فندعوا الله سبحانه أن يرزقنا الإخلاص، والعمل الصالح في كل حين .

وهذه الربانية هي من سمات الدعوة إلى الله، تعطيها من الصفات الأخرى صفة الثبات والاستقرار، فهي لا تتلون بتلون ما حولها، ولا تغير جلدها، ولا رايتها، ولا ولاءها حسب المصلحة كسائر الدعوات الأرضية، وتعطيها كذلك صفة الشمول والاتساع، فليست منحصرة في جانب واحد، بل تأخذ الدين وتقوم به من جميع جوانبه علمًا، وعملاً، وسلوكًا، وخلقًا، وتعطيها كذلك صفة العالمية : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٧] فليست منحصرة في بلد، أو قبيلة، أو شعب، أو طائفة، بل هي دعوة للإنس والجن إلى يوم القيامة، وتعطيها كذلك صفة الواقعية، فهي لا تعيش في الخيال، ولا تحارب المعارك في الخيال، بل تبدل الواقع – بإذن الله – إلى ما يوافق الإسلام، ويرضى عنه الرحمن .

ووصف الرسول ﷺ، ومن اتبعه بالدعوة إلى الله ؛ يدل على لزومها، ووجوبها، فكل مسلم يدعو إلى الله حسب علمه وقدرته، وإن لم يجد سوى نفسه، فليدعها إلى الله .

وقد قال تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤]، وقال النبي ﷺ : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** »(١) .

---

(١) رواه مسلم (٤٩) ، والترمذي (٢١٧٤) ، والنسائي (١١٧٣٩) الكبرى ، من حديث ابي سعيد الخدري رضي الله عنه .

والدعوة إلى الله فرض كفاية، إذا قامت به طائفة من الأمة – حتى يوجد المعروف ويزول المنكر – سقط الحرج عن الباقين، وإلا أثم كل قادر بحسب تقصيره، سواء كان قادراً بنفسه أو بالتعاون مع غيره، فيقصر في هذا التعاون، أو قادراً أن يأمر غيره وينصحهم بأن يدعوا إلى الله .

ولابد حين نتكلم عن وجوب الدعوة أن نعلم أن مشاركة الجميع في الدعوة ليس لحاجة الدعوة إليهم، بل لأنهم هم الذين في حاجة إلى الدعوة، ودين الله ماض بهم، أو بغيرهم، وهم لا يمشون إلا بدين الله، وإذا كان الله قال لخير الناس بعد الأنبياء صحابة رسول الله ﷺ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨]، فكيف يظن أحد أن الدعوة لا تمضي إلا به ؟ ولهذا فلا يمن أحد من الدعاة على الدعوة، ولا على إخوانه فيها، بل المنة لله وحده .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ فمن أهم أسس الدعوة إلى الله، لأن الدعوة بالجهل تضر أكثر مما تنفع، والبصيرة للقلب، كالبصر بالنسبة للعين، وبالبصيرة يفرق المؤمن بين الحق والباطل، والسنة والبدعة، والمصلحة والمفسدة، ومقام الدعوة : مقام خطر تزل فيه الأقدام، ويضل فيه أقوام، والانحراف فيه يمتد خطره أجيالاً، ويتحمل صاحبه أوزاراً ؛ ولذا كان تحصيل البصيرة من الفرائض على كل أحد، وعلى الدعاة إلى الله خصوصاً، لأن قرارهم في كثير من الأحيان يتوقف عليه مصير أمتهم .

أسباب تحصيل البصيرة :

منها – وهو أصلها – : صدق الإيمان بالله ورسوله ﷺ :

قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وهذا مثل المؤمن والكافر .

ومنها : العلم النافع بما جاء به الرسول ﷺ :

قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٩]، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨]، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** »(١) . ولذا كان من سمات دعوة الحق حرص أفرادها على طلب العلم، وملازمتهم لحلقه، ومتابعتهم لأهله .

ومنها : العمل بالعلم :

فمن عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم، وحقيقة التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، والتقوى تقود إلى البصيرة والنور، قال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢]، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

ومنها : صدق اتباع السنة ظاهراً وباطنًا :

لأن هذا هو تحقيق الإيمان برسول الله ﷺ ومقتضاه، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾ [الحديد : ٢٨] ؛ وهذا يستلزم تعلم السنة، وتقديمها في الأصول والفروع على قول كل أحد وهديه، كما قال ابن القيم في شأن الهجرة إلى النبي ﷺ بالقلب : « سفر النفس في كل مسألة من مسائل الإيمان، وحادثة من حوادث الأحكام، ومنزلة من منازل القلوب، إلى منبع الهدى، ومصدر النور المتلقى من فم الصادق المصدوق ﷺ، فكل مسألة طلعت

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة (٢٢٤)، والطبراني (١/١٦) الصغير، و(٩) الأوسط، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٣) .

عليها شمس رسالته، وإلا فاقذف بها في بحر الظلمات، وكل شاهد عدله هذا المزكى، وإلا فَعُدَّه من أهل الريب والتهمات » أ.هـ .

والاتباع من أصول الدعوة إلى الله لا تقوم إلا به .

ومنها : كثرة تلاوة القرآن، وفهمه وتدبره، وحفظه وتعاهده، والاستدلال به والعمل به، فبحسب نصيبك من القرآن يكون نصيبك من النور :

قال تعالى : **﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾** [الشورى : ٥٢] .

ومنها : كثرة العبادة – خاصة الصلاة – وإطالة السجود :

قال تعالى : **﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾** [العلق : ١٩] فكلما اقترب العبد من ربه استنار قلبه، وكلما أخلد إلى الأرض، ولم يرتفع، واتبع هواه، كلما التبس عليه الحق بالباطل، وترك الحق .

ومنها : الصدق، والصبر – ومنه الصوم – :

قال النبي ﷺ : « **الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء** » (١) فإذا اشتبهت عليك الأمور، ولم تدر كيف تسير – فافزع إلى الصلاة ؛ فلقد « **كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى** » (٢)، وأكثر من الصدقة، وعليك بالصوم فإنه نصف الصبر .

ومنها : غض البصر، وحفظ الفرج، وتجنب الاختلاط المحرم :

فإن أثر هذا النوع من المعاصي – خصوصًا في عمى القلب – معلوم لدى

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) ، والترمذي (٣٥١٧) ، والنسائي (٥/٥٤) ، وابن ماجة (٢٨٠) ، وأحمد (٥/٣٤٢) ، من حديث أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه .

(٢) حسن : رواه أبو داود (١٢٧٤) ، وأحمد (٥/٣٨٨) ، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣) .

أهل الإيمان، ألم تر كيف كان قوم لوط عليه السلام قد حان عذابهم وهم كما قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾؟ [الحجر: ٧٢]. وتأمل كيف جعل الله أحكام غض البصر، وحفظ الفرج وعقاب الزنا، وآداب الاستئذان، والأمر بالحجاب، وترك الاختلاط، والأمر بالزواج، والعفة، والنهي عن البغاء، في سورة النور التي تتضمن آية النور عقب هذه الأحكام العظيمة، لذا قال بعض السلف: من غض بصره عن المحارم أطلق الله نور بصيرته.

وقوله سبحانه: ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾، **قال ابن جرير في التفسير (١٣ / ٨٠)**: «معناه وقل تنزيها لله تعالى، وتعظيمًا له، من أن يكون له شريك في ملكه، أو معبود سواه في سلطانه» أ.هـ.

وفيه التنبيه على أن أساس الدعوة هو التوحيد، وهو أول واجب على المكلف، وأول واجب في الدعوة، وعليه يحاسب الناس يوم القيامة، فأصل الأصول في دعوتنا توحيد الله، وتنزيهه عن الشريك، والند، والصاحبة، والولد، والمثيل، والشبيه، وكل صفات النقص.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، **قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب** (١): فيه إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك أ.هـ.

أي: مثل شركهم، فإن من رضي بالشرك، فهو مشرك، وإن لم يفعله بنفسه ففيه أصل البراءة من الشرك وأهله، وعدم انتمائه لهم، ووقوفه تحت رايتهم، وانتمائه لأحزابهم.

وما أحوج الدعاة إلى هذا الأصل الذي من أجله يعاديهم أعدائهم، وإذا لم يحققوه في دعوتهم؛ اختلط الإيمان بالكفر، والحق بالباطل؛ فحصل الضلال، والعياذ بالله!

---

(١) من مسائله على باب الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله في كتاب التوحيد.

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾

تضمنت الآية خمس مسائل :

الأولى : أن الرسل من الرجال لا من النساء .

الثانية : أنهم من أهل القرى لا من أهل البوادي .

الثالثة : أنهم من البشر لا من الملائكة ولا من الجن .

الرابعة : صفات الرسل الكرام وأخلاقهم التي تضمنها كلمة (رجال) .

الخامسة : لزوم قراءة التاريخ قراءة إسلامية لمعرفة حقيقة الصراع بين الحق والباطل، ونهايته بهلاك المبطلين، وانتصار المؤمنين في الدنيا والآخرة .

المسألة الأولى :

قال ابن كثير – رحمه الله – : « يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع .

وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب وبقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : ٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام ، وبقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢–٤٣] .

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا ؟

الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم : « أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة : ٧٥] فوضعها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن » أ.هـ.

قلت : هذه مسألة من مسائل الاعتقاد النادرة التي يسع فيها الخلاف بين أهل السنة، واختلف فيها النقل عنهم، فقد نقل ابن كثير هنا ومثله النووي وغيرهم عن جمهور أهل السنة أنه ليس في النساء نبية، في حين نقل القرطبي والقاضي عياض عن الجمهور خلاف ذلك وإثبات نبوة مريم، ورجحه ابن حزم في مريم وغيرها ممن ذكر، إلا أن القرطبي نقل الاتفاق على أن أم موسى ليست بنبية، واحتج من أثبت النبوة للنساء بالآيات التي فيها الإيحاء إليهن، ونداء الرب سبحانه لآدم وحواء، وبقول النبي ﷺ : « **كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم** » (١) متفقٌ عليه .

والذي ينبغي الاتفاق عليه في هذا الباب، نفي الرسالة عنهن، لأن هذا نص القرآن، وأما النبوة من غير رسالة فهي محتملة، والراجح في المسألة الوقف، لأن

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٩٥٢) بلفظ « أفضل نساء الجنة أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد » ، أما لفظ « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ...» فليس فيه خديجة بنت خويلد ولا فاطمة بنت محمد ، وأخرجه البخاري (٣٤١١، ٣٧٦٩، ٥٤١٨) ، ومسلم (٢٤٣١) ، وابن ماجة (٣٢٨٠) .

نفي الرسالة لا يستلزم نفي النبوة، لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسول، على الصحيح المشهور من كلام أهل العلم، والوحي لا يلزم منه أن يكون وحي نبوة، فالوحي يحتمل أن يكون لنبي وأن يكون لغير نبي، فقد أوحى الله إلى الحواريين، وليسوا بأنبياء بالنص، لقول النبي ﷺ : « **أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، إذ ليس بيني وبينه نبي** » (١) رواه البخاري ومسلم، وأوحى الله إلى النحل، فلا يلزم من لفظ الوحي النبوة، كما لا يلزم من تكليم الملائكة لبشر، أو رؤيتهم أن يكون المكلم نبيًا، فقد رأى الصحابة جبريل، أتاهم يعلمهم دينهم وسمعوا كلامه، وكان عمران بن حصين يكلم وتسلم عليه الملائكة وهذا في الصحيح، وليسوا بأنبياء نصًا وإجماعًا .

والكمال لمن كمل من النساء، لا يلزم منه النبوة، لأن خديجة وفاطمة – عليهما السلام – ليستا بنبيات إجماعًا، وما احتج به ابن كثير بأن مريم صديقة بنص القرآن، لا يلزم منه نفي النبوة، فإبراهيم كان صديقًا نبيًا، وإدريس كان صديقًا نبيًا، فوصف الصديقية لا يلزم منه نفي النبوة، وإذا كان الكتاب والسنة قد أخبرانا بنفي الرسالة عن غير الرجال، ولم يثبتا نبوة أحد من النساء صراحة، ولم ينفياه صراحة، فالواجب أن نتوقف حيث أوقفنا الكتاب والسنة .

وقد ورد في الحديث « **لا أدري تُبّع نبي أم لا – وفي رواية – لعين أم لا** » (٢)، فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري نبوة البعض من عدمها، فنحن أولى بالوقف فيما لا نص باثباته ولا بنفيه، والله أعلم .

المسألة الثانية : أنهم من أهل القرى :

قال ابن كثير – رحمه الله –: « وقوله ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ ، المراد بالقرى:

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٤٤٢) ، ومسلم (٢٣٦٥) ، وابو داود (٤٣٢٤، ٤٦٧٥) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود (٤٦٧٤) بلفظ : « ما أدري أتبع لعين هو أم لا وما أدري أعزير نبي هو أم لا » ، والحاكم والبيهقي عن ابي هريرة ، وصححه الالباني في صحيح الجامع (٥٥٢٤) بلفظ : « لا أدري أتبع أنبيًا أم لا ؟ وما أدري ذا القرنين أنبيا كان أم لا ؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا ؟ » .

المدن، لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعًا وأخلاقًا، وهذا هو المعروف أن أهل المدن أرق طباعًا، وألطف من أهل سوادهم (أي: أريافهم)، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧]، وقال قتادة في قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود، وفي الحديث الآخر: أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت ألا أتهب هبة إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقفي، أو دوسي»(١) في الصحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيى ابن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ، قال الأعمش: هو ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»(٢)، أ.هـ.

وهذه المسألة لها أهمية كبيرة للدعاة إلى الله وأهل العلم، ومن يصدر لقيادة الناس، في الاهتمام بلين الجانب ورقة الطباع، والاختلاط بالناس مع تحمل أذاهم، وكف الأذى عنهم، ولا يمكن أن تنتشر الدعوة إلا بذلك، ولا يحب الناس ولا ينقادون إلا من كان معاشرًا لهم بالحسنى، لا الذي يعتزلهم، ولا الذي يخالطهم بالغلظة والفظاظة والجفاء، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وإذا كان الله سبحانه قد اختار لقيادة البشرية الأنبياء من أهل القرى، فينبغي أن لا يُصدّر في قيادة الناس أهل الجفاء والشدة، فإن تصديرهم بلاء على الأمة

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٦٨٢) وليس فيه دوسي، وأحمد (٧٣١٦) وليس فيه انصاري وفيه دوسي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٧٢).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٠٣٢) بلفظ: «أعظم أجرًا من المؤمن» بدل: «خير من الذي»، واحمد (٥٠٠٢، ٢٢٥٨٨) بلفظ «أعظم أجرا من الذي»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١).

وهلاك فيها، كما كان الحجاج بن يوسف هو المبير، أي : المهلك، الذي أخبر النبي ﷺ « أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا » (١)، فالكذاب المختار الثقفي، والمبير الحجاج، فكانت سنة ظالمة في المسلمين، وقد دعا الحسن فقال : « اللهم أنت قطعته عنا، فاقطع عنا سنته » .

فنسأل الله أن يولي على المسلمين من كان رؤوفًا رحيمًا، شفيقًا عفيفًا، لينًا كريم الجانب، وأن يقطع دابر الظالمين المفسدين، الذين يصدون عن سبيله ويبغونها عوجًا، وأن يقطع عن المسلمين سنتهم الظالمة .

المسألة الثالثة : أن الرسل من البشر، ليسوا ملائكة من أهل السماء كما طلبه المشركون :

قاله الضحاك عن ابن عباس، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فالرسول ﷺ ككل الرسل من البشر، ليسوا ملائكة، وهذا يقتضي أنهم خلقوا من الطين كسائر البشر، وليسوا من نور كما تدعي بعض طوائف الصوفية، ويحتجون بالحديث الباطل: « أول ما خلق الله، نور نبيك يا جابر »(٢)، ويدعون كذبًا أن رسول الله ﷺ لم يكن له ظُل حين يسير، كيف وفي الحديث الصحيح : « أن بلالاً وأسامة كانا يظللان رسول الله ﷺ بثوب من الحَر» (٣) .

---

(١) رواه مسلم(٢٥٤٥) فضائل الصحابة، والترمذي(٢٢٢٠)، واحمد(٥٥٧٥)

(٢) موضوع : وقال الألباني انه حديث باطل فقال (خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار السموم وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم) صحيح رواه مسلم، وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على السنة الناس : اول ما خلق الله نور نبيك يا جابر ونحوه من الأحاديث التي تقول بانه ﷺ خلق من نور فهذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور دون آدم ونبيه انتهى كلام الألباني في السلسلة الصحيحة(٤٥٨) .

(٣) رواه مسلم(١٢٩٨)، وابو داود(١٨٣٤)، في الحديث ان احدهما كان آخذ بخطام الناقة والآخر رافع ثوبه يستره من الحر، وفي النسائي ان الذي كان يظلله اسامة بن زيد رضي الله عنه(٣٠٦٠)

والخلاف بين العلماء من أهل السنة في أن أول مخلوق هو القلم – وهذا هو الصحيح –، أم العرش، أم الماء، وقد قال النبي ﷺ : « **إن أول ما خلق الله القلم...** »(١) الحديث، فالرسول ﷺ سراج منير، ونور مبين للقلوب والبصائر، لا أن مادة جسده ﷺ من النور، وأنه ليس من الطين، أو أنه يتنزه عن صفات البشرية، بل نص الكتاب والسنة أنه بشر قال: «**إنما أنا بشر، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**»(٢)، وُلد كما يولد البشر، ومات كما يموتون، ومن زعم حياة النبي ﷺ في قبره كحياة الناس على ظهر الأرض، ليست الحياة البرزخية، فإنها أكمل حياة له ﷺ في الرفيق الأعلى، من زعم حياته كحياة الأحياء من الناس فقد كَذَّب الكتاب والسنة وإجماع المسلمين قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ [الزمر : ٣٠]، وفي الحديث الصحيح إن جبريل قال للنبي ﷺ: « **عش ما شئت فإنك ميت** »(٣)، وفي الحديث الذي رواه البخاري أن أبا بكر رضي الله عنه قال: « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات »(٤)، وسياق الآية أصلاً لإثبات مسألة بشرية الرسول ﷺ وسائر الرسل والرد على المشركين في إنكار رسالة البشر .

وأما مسألة الرسالة والنبوة في الجن، فهذه الآية تثبت أن الرسل رجال من أهل القرى، وكما ذكر ابن كثير : حديث « **المؤمن الذي يخالط الناس ...** » الحديث، وهذا قول عامة أهل السُّنة وأما قوله تعالى : ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ**﴾ [الأنعام : ١٣٠] فلا يدل على أن من الجن رسل لأن الخطاب

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢١٥٥) القدر، وأبو داود (٤٧٠٠) السنة ، وأحمد (٢٢١٩٧) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٦) .

(٢) متفق عليه : ورواه البخاري (٤٠١) الصلاة ، ومسلم (٥٧٢) المساجد ومواضع الصلاة ، والنسائي (١٢٤٢) السهو ، وأبو داود (١٠٢٠) الصلاة .

(٣) حسن : أخرجه السيوطي عن الشيرازي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣) .

(٤) رواه البخاري (٣٦٧٠) المناقب ، وابن ماجة (١٦٢٧) ما جاء في الجنائز ، وأحمد (٢٧٨٠٧) .

للثقلين معًا، فهو يتحقق بوجود رسل من البشر، وليس من دليل بالوحي إلى الجن، ولا نزاع أن رسول الله ﷺ رسول إلى الإنس والجن جميعًا، كما دلت عليه سورة الأحقاف وسورة الجن، وأن منهم منذرين قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١] فدلت هذه الآية على أن الجن كانوا مطالبين ومخاطبين بشريعة موسى ثم صاروا مطالبين ومخاطبين بشريعة محمد ﷺ.

كما أن النقص الجبلي في الجن بالنسبة إلى الإنس يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] كما يدل عليه أمر أبي الجن بالسجود لأبي البشر آدم عليه السلام وقول إبليس عن ذلك: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، والواقع المشاهد يدل على نقص علم الجن وخفة عقولهم، وطيش تصرفاتهم في الجملة إلا من رحم الله، وهذا كله مما يقتضي عدم وجود رسل ولا أنبياء منهم، والله أعلم.

المسألة الرابعة:

الوصف بالرجولة يقتضي جملة من صفات الكمال لا يقتضيها الوصف بمجرد الذكورة، ولذا جاء هذا الوصف في سياق المدح في مواضع كثيرة من القرآن منها هذا الموضع، ومنها قوله تعالى عن مؤمن آل ياسين: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

ومنها قوله تعالى عن الرجل الذي أبلغ موسى بمؤامرة الملأ من قوم فرعون به

ليقتلوه : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص : ٢٠]، ومنها قوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .

[الأحزاب : ٢٣] .

فصفات الرسل وأخلاقهم أكمل الصفات وأكرم الأخلاق، قال تعالى عن نبيه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤]، ولأن الرسل أكمل الخلق إيمانًا فهم أحاسنهم أخلاقًا لأن « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** » (١) كما قال النبي ﷺ (في الترمذي وصححه)، وجملة ذلك أنهم موصوفون بكل خلقٍ جميل ليقتدي الناس بهم في هذه الأخلاق، وإليك أخي الكريم جملة من هذه الأخلاق، وهي مفصلة في كتب التهذيب والرقاق والأدب ولكن أحببت أن أجملها هنا لنزن أنفسنا بها، وننظر إلى حالنا في التشبه بهم والقرب منهم : –

الصدق في القول والعمل مع الله ومع الناس، وترك الكذب بالكلية، والصبر واحتمال أذى الخلق والحلم عنهم، وكظم الغيظ وكف الأذى، وعدم الانتقام للنفس إلا أن تنتهك حرمات الله .

والأناة وعدم الطيش والعجلة، والعفة واجتناب القبائح والفواحش في القول والعمل، وفي الأموال والأعراض، والحياء والكرم والجود والسخاء، وترك الشح والبخل والغيبة والنميمة وخيانة الأعين، والشجاعة وعزة النفس والبذل والقوة في الحق، والاستعداد لبذل المحبوب وإخراجه ومفارقته لأمر الله بذلك، والوفاء بالعقود والعهود والأمانات، للأهل والأرحام والأصدقاء، والبر والصلة والإحسان إلى الخلق .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (١١٦٢) الرضاع، وابو داود (٤٦٨٢) السنة، واحمد (٧٣٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٠) .

والعدل والتوسط في شيم النفس بين الإفراط والتفريط، فالجود وسط بين التبذير والبخل، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والحياء وسط بين الوقاحة والجرأة المذمومة، وبين العجز والمهانة والخور والضعف، والحلم وسط بين الغضب والمهانة والذل وسقوط النفس .

والتواضع والعزة المحمودة وسط بين الكبر والهوان، والقناعة وسط بين الحرص والتكالب والتنافس على الدنيا، وبين الخسة والمهانة والتضييع وترك التنافس على المراتب السامية من طاعة الله ومرضاته، والصبر وسط بين الجزع والهلع والتسخط، وبين القسوة والغلظة وتحجر الطبع والفظاظة .

والرحمة وسط بين القسوة والضعف والجبن وترك أوامر الله التي أمر فيها بألا تأخذ العباد فيها رأفة في دين الله، وطلاقة الوجه والتبسم والبِشْر في وجوه البَشَر وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد تكبرًا وعجبًا وطي البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال في الضحك في كل موقف ومع كل أحد حتى تزول الهيبة والوقار .

ومن صفاتهم - صلى الله عليهم وسلم - الإيثار بالدنيا، ومقابلة الإساءة بالإحسان، وسرعة العفو والصفح وقبول المعذرة، والمروءة في اللسان بحلاوة المنطق وطيبه ولينه، والمروءة في الخُلُق بسعته وانشراح الصدر في معاملة الخلق، وفي المال ببذله في مواقعه المحمودة شرعًا، وفي الجاه ببذله للمحتاج إليه، والقرب من الخلق بحيث يجدونه في أزماتهم ومشاكلهم : -

يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، يحسن إلى الخادم والمملوك، فضلاً عن الأهل والأقارب والجيران، يجالس المساكين، ويجيب الدعوة ولو إلى شئ يسير، ويمشي مع الأرملة والمسكين واليتيم في حوائجهم، يبدأ السلام من لقيه، خفيف المؤنة على من صحبه، لا يكلف

غيره مؤنته، هينًا لينًا سهلاً، يعود المريض ويشهد الجنازة، يعطي من حرمه، ويصل من قطعه، ويعفو عمن ظلمه، لا يتكبر ولا يحسد ولا يتعالى على الخلق، ولا يبغي ولا يفخر، ولا يغش ولا يتبع الشهوات، ولا يخاصم لنفسه ولا يعاتب لها، ولا يماري ولا يجادل إلا بالتي هي أحسن، ولا يستقصي حقه، ويغضي عن عيوب من أساء إليه فضلاً عمن سواه إلا لحق الله تعالى، ويتغافل عن عثرات الأهل والأصحاب والناس مع إشعارهم أنه لا يعلم لهم عثرة، يوقر الكبير ويرحم الصغير، ويأتي إلى الناس أفضل مما يحب أن يأتوه إليه، ويحسن عشرة كل من عاشره من أم وأب، وابن وبنت، وأخت وأخ، وقريب وجار، وامرأة وصاحب ومملوك، وكل من يعامله، والله المستعان وعليه التكلان .

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، اللهم ارزقنا رفقة الأنبياء، وعيش السعداء، وموت الشهداء، اللهم صلي على نبينا محمد وسائر النبيين والمرسلين وسلم وبارك عليهم وآلهم وصحبهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المسألة الخامسة :

لزوم قراءة التاريخ قراءة إسلامية لمعرفة حقيقة الصراع بين الحق والباطل ونهاية وهلاك المبطلين وانتصار المؤمنين في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عدم تدبرهم عاقبة الأمم والسير في الأرض لأجل هذا النظر، وقد أمر الله بالسير في الأرض والنظر والتفكر في من مضى من الأقوام، وكيف كانت مخالفتهم للرسل وتكذيبهم لما جاءوا به سببًا في هلاكهم ودمارهم قال تعالى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾[النمل : ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧]، وقال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] وأكثر الخلق إما لا يتدبرون ما يرون من آثار من قبلهم وما آل إليه أمرهم، وإنما ينشغل كثير منهم اليوم بالاعجاب ببنائهم وتماثيلهم وما يسمونه بحضارتهم دون أدنى إدراك لما يدل عليه ذهاب ملكهم وسلطانهم ودولهم .

ومنهم من يفسر ميلاد الأمم وموتها والصراعات التي تجري بينها بالأسباب المادية حسب ما أداه إليه نظره الجاهل، وكم شقيت الملايين والأجيال بسبب نظريات قادتها في حقيقة الصراع بين الأمم، فمنهم من فسر كل ما جرى في التاريخ على أنه صراع من أجل المال، وأن المال هو المحرك الأساسي لإرادات البشر، وأن المصالح الاقتصادية هي سبب كل الحروب والاختلافات، والمال عندهم عصب الحياة بل وإلهها المعبود مصداق ما قال رسول الله ﷺ : « **تعس عبد الدينار والدرهم** » (١) .

وهذه الحضارة بل - الانحطاط - الغربي الرأسمالي يقود الحروب ويدبرها لأجل إعلاء سلطان المال واستثمارات رأس المال، وينشر أن الشركات العملاقة العالمية هي التي تتحكم في مصير الدول والشعوب وثرواتها، وقد حاول أصحاب هذه النظرية تصوير فتوح المسلمين في المشارق والمغارب على وفق ذلك - وكذبوا -، فقالوا أن المسلمين أرادوا الخروج من الجزيرة العربية قليلة الموارد في المياة والأرض الصالحة للزراعة وغيرها حتى يُحصلوا الرخاء والسعة، وها هي كتاباتهم في كتب التاريخ التي تحاول أن تدمر في أبناء المسلمين الحس الإيماني

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) ، وابن ماجة (٤١٣٥) .

والهدف الرباني الذي تحرك المسلمون من أجله قائلين : « **الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة** » [١] .

ويحاولون أيضًا أن يُنسوا المسلمين أن الحروب الصليبية كانت في المقام الأول حروبًا دينية لمحو الإسلام وإطفاء نور الله في الأرض، بزعم أنها كانت بدوافع اقتصادية، ولا شك أن غرض الصليبيين كان مشتملاً على ذلك فهم كما قال الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ** ﴾ [التوبة : ٣٤]، ولكن هذا بالإضافة إلى المقصد الأصلي لهم في رفع راية الصليب .

ومنهم من فسر ما جرى من صراع بين الأمم على أنه صراع الطبقات في المجتمعات، وأنه لابد أن تسود الطبقة العاملة، وهذه الشيوعية وما تفرع منها من الاشتراكية والبعثية والجماهيرية كم أشقت الأمم وقتلت الملايين وانتهكت الحرمات في المشارق والمغارب حتى انهارت وانتهت .

ومنهم من يفسر كل صراع على أنه صراع الشهوة الجنسية، وأنها المحرك الأساسي للإنسان، ومنهم من يفسر حركة التاريخ على أنها صراع لأجل تفوق جنس بعينه على سائر الأجناس، كعقيدة اليهود أنهم شعب الله المختار، واعتقاد الأوربيين بلزوم سيادة الجنس الأبيض، ثم بعضهم يقول بسيادة الجنس الآري وبعضهم الأنجلوساكسوني، وغير ذلك من الخزعبلات التي تشقى بها الأمم وتعذب بها الشعوب، والتي حين ننظر إليها من خلال القراءة الإسلامية للتاريخ في نور آيات القرآن نعلم أنها جميعًا من إضلال الشيطان لهؤلاء الكافرين بتزيين هذه الشهوات البهيمية، أو إرادة العلو في الأرض والفساد ليُعبد غير الله في

---

[١] قاله ربعي بن عامر ﵁ لرستم ملك الفرس قبل القادسية .

الأرض قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٥] .

فحقيقة الأمر أنه صراع حول قضية العبودية، هل تكون لله وحده كما يريد أولياء الرحمن وهم رسل الله وأتباعهم ؟ أم تكون للشيطان والطاغوت بتوسط ألهة كثيرة متعددة ؟ هذه المعركة لا تحسمها القوة المادية ولا أنواع التخطيط والمكر والكيد، إنما يحسمها مدى تمسك أهل الإيمان بعقيدتهم ومنهجهم وثباتهم على ذلك وعملهم بمقتضى منهجهم في مجتمعهم، ودائمًا يبدأ الأمر بقوة أهل الباطل الظاهرة – رغم ضعفها في حقيقة الحال – ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦]، ويتعرض أهل الإيمان للاستضعاف والامتحان والبلاء والبطش والإيذاء، ويقتل منهم من يقتل، ويفتن كثير ممن ينتسب إليهم، ولا يدري حقيقة الطريق، ومع ذلك ومع تمكن الباطل وكثرة عَدده وعُدَده ينقص الله الأرض من أطرافها حولهم بظهور الإسلام وقبول الناس تدريجيًا لنور الإيمان : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الأنبياء : ٤٤]، إلى أن تتربى الطائفة المؤمنة على ما يحب الله ويرضى من العقيدة والعمل والسلوك، وتترابط وتتماسك وتتحاب في الله حتى تكون جسدًا واحدًا، وتزكو وتنمو وتؤهل لقيادة البشر، ويكتمل فيها الإيمان والإسلام والإحسان، فعند ذلك يأذن الله باضمحلال قوة الباطل ومجيء الحق : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

فتتغير الموازين وتتبدل الأحوال وينزع الله الملك من أعدائه ويؤتيه أولياءه، ويُمكّن لهم في الأرض : يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويأمرون بالمعروف –

الذي يرأسه توحيد الله واتباع رسوله –، وينهون عن المنكر – الذي رأسه الشرك بالله ومخالفة رسوله –، ولله عاقبة الأمور، ويصبح أهل الباطل وعباد الطاغوت مجرد أخبار وأحاديث يتعظ بها أهل الإيمان في الحلقات التالية لهذا الصراع، ويعرفون بها حقيقة طريقهم وطبيعة صراعهم ونهايته المحتومة التي قضاها الله، وإن لم يدركها بعضهم لأنه يسقط شهيداً في الطريق، إلا أنه خطوة على السبيل ولبنة في البناء، وحقه لن يضيع في الدنيا بلسان الصدق الذي يجعله الله له في الآخرين، وفي الآخرة حيث ينصره الله أعظم النصر، ويفوز بالجنات والرضوان، ورؤية وجه الكريم المنان الرحيم الودود نعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل، ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

ولا تزال طائفة من أهل الحق باقية لا يسلط الله عليها عدواً تسلطًا يزيل الحق بالكلية، بل يظهرها بالحجة والبيان، ثم بالقوة والسنان، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ : « **لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة** » (١) .

وإن كانت سُنته سبحانه أن تأييد من يبقى منهم بالقوة والسنان، حتى يقهروا أولياء الشيطان، إنما تكون بعد أن يبلغ الأمر مداه، ويشتد البلاء إلى منتهاه، حتى يحصل لهم كمال اليأس من الخلق، الذي هو في حقيقته كمال التوكل على الله سبحانه، بل ويحصل لهم كمال اليأس من أنفسهم أن يهدوا أحداً من الخلق، أو أن ينصروا بأنفسهم الدين، وربما استعجل من استعجل حتى يظن بالله الظنونا، وحتى يقولوا : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ، وعند ذلك يأتي النصر القريب كما تجده في الآية التالية وهي :

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٦٤١) بلفظ « حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » ، ومسلم (١٥٦) بلفظ « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » ، والترمذي (٢٢٢٩) ، وأبو داود (٤٢٥٢)

النصر والفرج بعد الشدة واليأس

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾

ما أحوجنا إلى تدبر هذه الآية الكريمة على وجوه قراءتها - التي كلها حق ومن عند الله - فكل وجه من وجوه قراءتها، وكذا وجوه تفسيرها، له من الفوائد العظيمة التي يحتاجها السائرون إلى الله على طريق الرسل المحفوف بالمكاره والآلام، فلنستعرض أولاً ما ورد من وجوه القراءة وما فيها من وجوه التفسير ثم نذكر فوائدها .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « وفي قوله : ﴿ كُذِبُوا ﴾ قراءتان؛ إحداهما : بالتشديد ﴿ كُذِّبُوا ﴾ ، وكذلك كانت عائشة ﵂ تقرؤها، قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب، قال : أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة : أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ قال : قلت : أَكُذِبُوا أم كُذِّبُوا ؟ فقالت عائشة : ﴿ كُذِّبُوا ﴾ فقلت : قد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم، فما هو بالظن؟ قالت : أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ فقالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر النصر ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك .

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال : أخبرني عروة : فقلت : لعلها ﴿ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مخففة ؟ قالت : معاذ الله ! انتهى ما ذكره .

وقال ابن جريج : أخبرني ابن أبي مليكة : أن ابن عباس قرأها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ خفيفة . قال عبد الله - هو ابن أبي مليكة - ثم قال لي ابن عباس : كانوا بَشَرًا ! ثم تلا : ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ . قال ابن جريج : وقال لي ابن أبي مليكة : وأخبرني عروة، عن عائشة : أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت : ما وعد الله محمداً ﷺ من شئ إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل، حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي مليكة في حديث عروة : كانت عائشة تقرؤها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ مثقلة، للتكذيب .

وقال ابن أبي حاتم : أنا يونس بن عبد الأعلى - قراءة - أنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال : جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال : إن محمد بن كعب القرظي يقول هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ فقال القاسم : أخبره عني ؛ أني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ تقول : كذبتهم أتباعهم . إسناده صحيح أيضًا .

والقراءة الثانية : بالتخفيف، واختلفوا في تفسيرها : فقال ابن عباس ما تقدم .

وعن ابن مسعود فيما رواه سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله : أنه قرأ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مخففة، قال عبد الله : هو الذي تكره .

وهذا عن ابن مسعود وابن عباس ﷺ، مخالف لما رواه آخرون عنهما .

أما **ابن عباس** : فروى الأعمش، عن مسلم عن ابن عباس في قوله : ﴿ حَتَّىٰ

﴿إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قال : لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ .

وكذا رُوي عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية وعلي ابن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس بمثله .

وقال ابن جرير : حدثني المثنى، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا شعيب، حدثني إبراهيم بن أبي حرة الجزري قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال : يا أبا عبد الله، كيف تقرأ هذا الحرف، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ . قال : نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَل إليهم أن الرسل قد كَذَبوا، قال : فقال الضحاك بن مزاحم : ما رأيت كاليوم قط رجلاً يُدْعَى إلى علم فيتلكأ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً .

ثم روى ابن جرير أيضًا من وجه آخر : أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه وقال : فرج الله عنك كما فرجت عني .

وهكذا رُوي من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك . وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف، حتى أن مجاهدًا قرأها ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾ بفتح الذال . رواه ابن جرير، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم، أي: وظن الكفار أن الرسل قد ﴿كُذِبُوا﴾ – مخففة – فيما وعدوا به من النصر .

وأما ابن مسعود ؛ فقال ابن جرير : حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد ابن فضيل، عن جحش بن زياد الضبي، عن تميم بن حذلم قال : سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول في هذه الآية : ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا لهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم ﴿قَدْ كُذِبُوا﴾ - مخففة - .

فهاتان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم ، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير ووجّه المشهور عن الجمهور، وزيّف القول الآخر بالكلية، ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم . » انتهى كلام ابن كثير .

فيتحصل من ذلك أن قوله تعالى : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ يقرأ على وجهين، كلاهما ثابت بلا شك : -

الوجه الأول : ﴿كُذِبُوا﴾ وهي قراءتنا المشهورة (قراءة عاصم وحمزة والكوفيين وخلف وأبو جعفر) وعلى هذا الوجه فله ثلاثة أوجه في التفسير :

الأول : أن الرسل قد ظنت أنها قد كُذِبت، وهذا هو الثابت بأسانيد صحيحة عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ، حيث قال ابن عباس: « كانوا بشراً » وقال: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وهو يوضح معنى الظن هنا عند ابن عباس رضي الله عنه ، وأنه مجرد الخواطر التي تطرأ على القلب ولا تستقر، من جنس: « ما وقع لرسول الله ﷺ في فترة انقطاع الوحي حين همّ أن يتردى من فوق جبل » (١)، وهذه كلها عوارض البشرية التي تقع للرسل حتى يكونوا قدوة للمؤمنين في دفع هذه الخواطر، فهي ظنون مرجوحة مطرودة يجاهدها المؤمن ليصل إلى علم اليقين وحق اليقين، والرسل

---

(١) صحيح : معنى حديث رواه البخاري (٦٩٨٢) التعبير ، ومسلم (١٦٠) الإيمان .

تصل بعدها إلى عين اليقين، حتى إذا وقعت هذه الظنون في نفس المؤمن لشدة الحال لم يقنط من رحمة الله، ولم يخدعه الشيطان عندها أنه قد زال إيمانه، بل هذه طبيعة القلب البشري ومجرد ورود الخواطر لا يمكن منعه ابتداءً، ولا يحاسب عليه الإنسان ما لم يصل إلى الشك أو أن يظن الظن الراجح بالاعتقاد الفاسد، وهذا الذي أنكرته عائشة ﵂ أن تكون الرسل قد ظنت، أي: غلب على ظنها أو اعتقدت ذلك في ربها أو حتى شكت، وهذا مما لا نزاع فيه بين أحد من أهل السنة وأهل الإيمان إن شاء الله.

ولما لم تكن عائشة ﵂ تعلم بهذه القراءة وتوجيهها الذي قاله ابن مسعود وابن عباس ﵃ أنكرتها.

الوجه الثاني على قراءة ﴿كُذِبُوا﴾: أن بعض أتباع الرسل ظنوا أن الرسل قد كُذِبت وهذا يحتمل أمرين: —

الأول: أن أتباع الرسل من المؤمنين وقع لهم ما ذكر في الوجه الأول، وهو خواطر ووساوس دفعوها بحمد الله وما استقرت في النفوس.

الثاني: أن يكون بعض أتباع الرسل قد فتنوا من شدة الحال، كمن يعبد الله على حرف ومن يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

والاحتمال الأول أظهر عندي لأن الله وصف من قال: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ بالإيمان، فجعل سبحانه استبطاء النصر لا ينافي الإيمان، فدل على أنه الخواطر لا الشكوك ولا الظنون الراجحة ولا اليقين بالأولى.

الوجه الثالث على قراءة ﴿كُذِبُوا﴾: أن أقوام الرسل من الكفار ظنوا أن الرسل قد كذبت وأنه لم يأتها شيء لما استبطأ النصر، وهو هنا الظن الراجح عندهم واعتقادهم الفاسد كما قالت أم جميل لرسول الله ﷺ لما أبطأ عليه جبريل: « ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا

قَلَى ﴾(١) » [الضحى : ٣] في الصحيحين دون تسميتها أم جميل .

وأنت إذا تأملت أقوال السلف بمجموعها، وعلمت ما يجري في واقع الحال عند المحن والشدائد، وجدت أن مجموع أقوالهم يصف تفاصيل ما يقع لطوائف مختلفة ونوعيات متفاوتة كلها موجودة في الواقع .

ومن فتّش في نفسه وراقب خواطره واستوعب كذلك ما يقع لإخوانه والناس حوله، خاصة عند الضربات المتتابعة والهزائم المتتالية التي قد تحل بالطائفة المؤمنة في مراحل مواجهتها الأولى مع الباطل، وشدة التفاوت بين القوة الظاهرة للباطل والاستضعاف الشديد للمؤمنين، علم فعلاً أن حقيقة الواقع هو في مجموع أقوال السلف وإن كان في نهاية الأمر بعض الأقوال أليق بظاهر الآية لكن غيرها ملازم لها غير معارض، فأما قول ابن عباس رضي الله عنهما كانوا بشراً يعني أن الرسل قد ظنت - أي جاءتها خواطر - أنها قد كُذِبت .

ورغم أن هذا يضيق به البعض ويكرهه كما قال ابن مسعود رضي الله عنه لمسروق: « هو الذي تكره »، لظنه أنه مخالف لعصمة الرسل واللائق بهم، لكنه والله عند التأمل والتجربة من أعظم أسباب الراحة والطمأنينة لعباد الله المؤمنين لأن لهم في الرسل الأسوة الحسنة، وورود الخواطر حتى بظن أن الوحي ما أتاهم أو أن النصر لن يأتي لا ينافي ماثبت من عصمتهم، فإن الخواطر من عوارض البشرية لا دليل على امتناعها على الرسل، إنما المنع من الاعتقاد الباطل أو الشك، أما ورود الخواطر التي يجاهدونها ويدفعونها فأين في الكتاب والسنة أو الإجماع المنع من ذلك، وقد ورد نحو من هذا في الكلام على هم يوسف، وأما كون هذا من أسباب راحة المؤمنين لأن لحظات الشدة قد يكون معها هذه الخواطر والتي يتفاوت الناس كثيراً جداً في حجمها ومدتها وبقائها، فمنهم من تأتيه كوميض

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١١٢٥) تفسير القرآن ، ومسلم (١٧٩٧) الجهاد والسير ، وأحمد (١٨٣٢٧) واللفظ له .

برق مفزع لصاحبه يزول بأسرع ما يكون ويأتيه بعده برد اليقين ومطر الإيمان المتتابع الذي يثمر في أرض القلب أنواع الخيرات والثمرات الزكية ويدرك به فضل الله عليه في التثبيت وأنه لا يملك لنفسه شيئًا وأنه والله لولا الله ما اهتدى .

وتأمل قول الله – عز وجل – لنبيه محمد ﷺ : **﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾** [الإسراء : ٧٣–٧٥] .

ولا شك أن الركون إلى الكفرة في افتراء غير الحق على الله – عز وجل – هو من هذا الجنس من الخواطر، تزول ولا تستقر، يعرف بها المؤمن – اتباعًا لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – « **أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فأيما قلب أراد أن يقيمه أقامه ، وأيما قلب أراد أن يزيغه أزاغه** » (١) ولا يزال دأبه في كل لحظة الالتجاء إلى الله سبحانه، والفرار منه إليه، قائلاً داعيًا متضرعًا : « **اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك** » و « **اللهم يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك** » .

وهذه الخواطر ليست شكًا، بل هي مرحلة بين طمأنينة القلب التي سألها إبراهيم، وبين الشك الذي نفاه رسول الله ﷺ عن إبراهيم عليه السلام حين قال : « **نحن أحق بالشك من إبراهيم** » (٢)، وهناك من المؤمنين من تتكرر عليه هذه الخواطر أكثر من ذلك، ويجد بسببها ما أن يخر من السماء أهون عليه من أن يتكلم به، ويظل مجاهدًا لذلك كثيرًا، وهذا صريح الإيمان كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) القدر ، والنسائي (٧٧٣٨) في الكبرى ، والترمذي (٢١٤٠) ، وابن ماجه (١٩)، واحمد (٦٥٦٩) ، وقد ورد في بعض روايات الحديث الدعاء الذي يليه بلفظ : « **يا مقلب القلوب** » ، وفي بعضها بلفظ : « **يا مصرف القلوب** » .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٣٣٧٢) احاديث الأنبياء ، ومسلم (١٥١) الإيمان ، وابن ماجة (٤٠٢٦) الفتن ، وأحمد (٨١٢٩) .

وعساه باستمرار الجهاد أن يصل إلى برد اليقين ومهيمنية (١) الصديقين، فتنقطع عنه الوساوس والخطرات، ويلحق بمن سبقه من السابقين بالخيرات .

وإخبار القرآن عن وقوع الخواطر من الرسل وأتباعهم المؤمنين – على الوجهين من التفسير – يبرد في قلوب المؤمنين حر هذا الجهاد، ويثبت قلوبهم، ويبشرهم بأن هذا الذي وجدوه لا يدل على انتفاء الإيمان من قلوبهم – وهو أحب شئ إليهم –، وزواله وحصول ضده من الشرك أو التكذيب أكره عندهم من الحرق بالنار، بل إيمانهم بحمد الله باق، وعن قريب تزول هذه الخواطر، بل ويزول تسلط الأعداء، ويأتي نصر الله القريب .

وهناك صنف ثالث لا يعرف حقيقة الطريق، ويظن أنه لا يفتن، بل تكفيه دعوى الإيمان، فإذا جاءت المحن والفتن افتتن، وظن أنه ﴿ **مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ وأنه ﴿ **غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ** ﴾، وهذا النوع الذي في قلبه مرض، ولو تأملت الآيتين في الأنفال : ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٤٩]، وفي الأحزاب : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ [الأحزاب : ١٢] لوجدتهما يذكران نوعين من الناس (المنافقين) و (الذين في قلوبهم مرض)، فالمنافقون في الأصل يعتقدون أن الرسل قد كذبت، أو عندهم شك في ذلك ابتداءً، وهذا مثل قول من قال ظنوا أي: ظن الكفار أن الرسل قد كذبت، وأما الذين في قلوبهم مرض، فهم الذين كان إيمانهم وعبادتهم على حرف، فعند الفتنة افتتنوا، فهم في الأصل لم يكونوا منافقين النفاق الأكبر، ولكنهم عند الفتنة سقطوا فيه والعياذ بالله، ويدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ** ﴾ [الحج : ١١]،

---

(١) أي : مراقبتهم لله سبحانه .

فهو دليل على أنه قبل الفتنة لم يكن منقلبًا ولم يكن خاسرًا الدنيا والآخرة، وإنما خسر الدنيا والآخرة لما انقلب لما جاءته الفتنة، فكان عنده قبل ذلك إيمان ناقص ضعيف، لا يثبت عند المحن، لو شككك لشك، ولو فتن لافتتن، وهو كحال مسلمة الأعراب – على قول جمهور المفسرين – أنهم لم يكونوا منافقين النفاق الأكبر، وكان في قلوبهم مرض، فهم مسلمون وليسوا بمؤمنين الإيمان الواجب، وكذا من قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب : ١٤]، ولو كانوا قبل دخول الكفار عليهم المدينة – لو حدث – من نواحيها منافقين، لفرحوا بهم ولما احتاجوا أن يسألوهم الفتنة أي : الشرك، بل كانوا يبادرون إليها، وأما هؤلاء فهم يؤتون الفتنة بعد توقف قليل ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾، وهذه النوعية ضعيفة الإيمان موجودة في الصف المسلم، ووجودها في المراحل الأولى للدعوة خطر كبير عليها، لأن الأوائل هم الذين سيتصدرون بعد حين في قيادة الأمة بل العالم، إمامةً وعلمًا، وروايةً ودرايةً، وتربيةً وتوجيهًا، ودعوةً وجهادًا، وملكًا وسلطانًا، فلو بقيت الأمور بلا تمحيص، لتصدر مثل هؤلاء، فحصل من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، فيقدر الله الابتلاء الذي يصل إلى حد اليأس من الناس ومن النفس، وحتى تأتي الخواطر السيئة لأهل الإيمان، وحتى تحصل الفتنة لهذا الصنف من الناس، فيتخلف ويتراجع، ويفتن ويشك، وينسحب ويتساقط من الزلزلة، فيصفو الصف المؤمن، ويعرف فيه من يصلح ومن لا يصلح .

وأما الكفار والمنافقون فهم على ظنهم واعتقادهم الفاسد من البداية، لكنهم يرون في استبطاء النصر دليلاً على ظنهم، وهذه فتنة لهم ليزدادوا إثمًا وطغيانًا وكبرًا، ثم يأخذهم العزيز المقتدر، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأقرب الأقوال عندي إلى ظاهر الآية، أن الضمير يعود على أقرب مذكور

وهم الرسل، وأنهم خطرت ببالهم هذه الخواطر التي ثبتهم الله عندها، وصرفها عنهم، ورزقهم برد اليقين وعلم اليقين وحق اليقين، ثم جاء النصر فكان عين اليقين، نسأل الله أن يرزقنا ذلك باتباعهم والاقتداء بهم .

ومن لوازم هذا القول أن أتباعهم المؤمنين قد حدث لهم مثل ذلك، بل وزيادة عليه كما ذكرنا، ومن لوازمه أيضًا أن من فتن من هؤلاء الأتباع، ومن كان مفتونًا أصلاً من الكفار والمنافقين، تأكد لديهم الظن الكاذب والوهم الفاسد ظن السوء، باضمحلال الدين وهزيمة المؤمنين، هزيمة لا نصر بعدها، فجاء النصر بعد ذلك ماحقًا لعقائد المبطلين، ونجاة لعباد الله المؤمنين ﴿ **جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ .

وأما قراءة عائشة ﵂ وتفسيرها : ﴿ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا** ﴾ أن الرسل ظنت أن أتباعهم كذبوهم – فهي قراءة ثابتة بلا شك وهي قراءة نافع وأبي عمرو ويعقوب – والمعنى الذي ذكرته ﵂ معنى حق أيضًا، وهو يكمل جانبًا آخر من صورة الموقف عند البلاء وهو أن شدة الأمر تجعل كثيراً من الناس يفتن حتى يظن الرسل أن أتباعهم الخُلَّص سيلحقون بالمنسحبين المفتونين وأنهم يبقون وحدهم .

وهذا والله من أعظم المعاني الإيمانية فهم عازمون على السير إلى الله ولو كذبهم الناس كلهم، كما قال النبي ﷺ : « **والنبي وليس معه أحد** » (١) فهم لا يستوحشون من قلة السالكين بل وانعدامهم ليكونوا بذلك الأسوة الحسنة لمن يأتي بعدهم من المؤمنين، حين يجدون من معهم يتركون الطريق ويتركون نصرة الدين، وتهمهم أنفسهم ويظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية من إنكار القدر، فظن أن الأمور إنما تتم حسب تخطيط الكفار ومكرهم وليس بأمر من الله وقدره هو من ظن الجاهلية، وكذلك إنكار الحكمة في حصول التسلط العنيف

---

(١) متفق عليه : سبق تخريجه ص (٢٦٥) .

والضربات المتتابعة مع أن المؤمنين على الحق والكفار على الباطل فيحصل الريب والشك لطوائف، وكذلك ظن اضمحلال الدين وكل هذا من ظن الجاهلية، وهو والله يقع من طوائف عند شدة المحنة، ونسأل الله العافية، فعندما يجد المؤمنون والدعاة والمجاهدون بعض من معهم يقع ويسقط في الفتن، يتذكرون حال الرسل الذين استيأسوا من إيمان قومهم وظنوا أن أتباعهم قد كذبوهم، ومع ذلك فهم عازمون على الثبات والسير في الطريق ولو وحدهم، فيعزمون مثلهم على ذلك، وهذا من أعظم وأربح التجارات مع الله – سبحانه – فهو يثاب هذا الثواب بعزمه على السير إلى الله وحده ولو لم يقع ذلك، لكنه يقدر له ما يظن معه انسحاب كل من معه ليعزم على الانفراد لله ثم يأتيه النصر فيجمع الله له خير الدنيا والآخرة كما قيل :

ولواحد كن واحداً في واحد أعني طريق الحق والإيمان

أي : لله الواحد كن سائرًا ولو وحدك في طريق واحد هو طريق الحق والإيمان .

(من نونية ابن القيم) .

وأما إنكار عائشة ﵂ للقراءة الأخرى وهي متواترة عندنا الآن، فلأنها لم تسمعها من رسول الله ﷺ ولم تبلغها من طريق تقوم بها الحجة عندها فهي معذورة بعدم البلاغ، ففيه دليل على أن من أنكر شيئًا من الدين – بل ومن القرآن – لم تبلغه الحجة به فهو معذور، ولا عذر لمن بلغته الحجة، والله أعلم .

وبهذا الجمع – بحمد الله – يتضح لك فائدة جمع أقوال السلف في تفسير الآية، وكذا جمع القراءات وتوجيهها، فكل منها يدلك على معنى حق من معاني الإيمان ويتناول جانبًا من جوانب الواقع يعالج ما يقع في النفوس ويشفي به الله صدور المؤمنين فاللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا .

وأما قوله تعالى : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ فقريء ﴿ نُجِّيَ ﴾ بالبناء للمجهول، وقريء ﴿ فَنُنَجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ فالله هو الذي نجّى من يشاء بفضله ورحمته ومنته، وجاء النصر في أشد لحظات المحنة، وهكذا كانت هذه السورة من المبشرات لرسول الله ﷺ بقرب الفرج والنصر والنجاة، وقد كان، ونزل بأس الله بالكافرين ﴿ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

اللهم إنا نسألك نصرك العزيز وفرجك القريب، ونسألك أن تنزل بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين بأعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمنافقين وسائر الكفرة والظالمين الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك ولا يؤمنون بوعدك، وقد طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربنا سوط عذاب، إنك ربنا بالمرصاد . . آمين .

القرآن هدى ورحمة

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

قال ابن كثير - رحمه الله - : « يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين : ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ وهي العقول، ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أي : وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي : يكذب ويختلق ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير .

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والأخبار عن الأمور الجلية وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب - تبارك وتعالى - وبالأسماء والصفات وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم الميعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة » أ.هـ.

وقد ذكر العلامة المبارك الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - في تفسيره جملة من العبر والفوائد في قصة يوسف عليه السلام، مضى بعضها في القصة، لكن أحب أن أذكرها هنا كما ذكرها جملة، مع تعليق على بعضها رأيت الصواب في خلافه، والله أعلم .

قال – رحمه الله – : « فصلٌ في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ وقال في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد فمن ذلك : –

أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقلات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك مَنْ قصها فأحسنها ووضحها وبينها .

ومنها : أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكبًا له ساجدين، وجه المناسبة فيها : أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها فكذلك الأنبياء (١) والعلماء زينة للأرض وجمال وبهم يُهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل

---

(١) قوله – رحمه الله – هنا « وكذلك الأنبياء . . . » وكذا قوله بعد عدة فوائد « ولهذا في أصح الأقوال انهم كانوا أنبياء لقوله تعالى ﴿ وأوحي إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ وهم اولاد يعقوب الإثنى عشر وذريتهم ... » هذا ليس بظاهر إذ قد دل القرآن على عدم نبوتهم بما فعلوا مع ابيهم واخيهم - وقد سبق - ولم يدل دليل ظاهر على نبوتهم بعد ذلك وليس في الكتاب ولا في السنة ما يدل على ان الأسباط هم اولاد يعقوب الإثنى عشر وذريتهم بل كما سبق نقله عن ابن كثير – رحمه الله – ان الأسباط هم أنبياء بني إسرائيل الذين هم من ذرية أبناء يعقوب الإثنى عشر وكما لم يلزم ان يكون ذرية هؤلاء كلهم انبياء - وهذا بلا خلاف بين أهل العلم - فكذلك لا يلزم ان يكونوا هم انبياء ، ومما يدل على عدم نبوتهم ان الأفعال التي ارتكبوها مما ينفر عنهم حتى لو كان قبل النبوة فتوبتهم تقتضي محو ذنوبهم لا إثبات اهليتهم لمقام النبوة ، وايضا قد ذكر يعقوب عليه السلام ان الله يتم نعمته على آل يعقوب باجتباء يوسف بالنبوة فهو يشعر بانه هو المجتبي من أبناء يعقوب بمقام النبوة لا غيره ، والله اعلم .

أعظم نوراً وجرماً، لما هو فرع منه فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته (١)، ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات فكانت لأبيه وإخوته، ومن المناسبة أن الساجد معظِّم محترِم للمسجود له، والمسجود له معظَّم محترَم، فلذلك دلّ ذلك على أن يوسف يكون معظماً محترماً عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذلك أن يكون مجتبي مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا الذي رأى أنه يعصر خمراً، أن الذي يعصر في العادة يكون خادماً لغيره، والعصر يُقصد لغيره، فلذلك أوّله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن .

وأوّل الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأن جلد رأسه ولحمه وما في ذلك من المخ أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل .

وأوّل رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصبة، والسنين المجدبة ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه .

---

(١) الظاهر والله اعلم ان الشمس اباه والقمر امه ، وما ذكره الشيخ من المناسبة بتانيث الشمس والقمر والكواكب مذكرات فكانوا اباه وإخوته غير ظاهر فالتانيث هنا مجازي في لغة العرب ، وليست بلغة يوسف واهله ، ثم إن حاجة الناس إلى نور الشمس وبقاءهم بها اضعاف اضعاف حاجتهم وبقاءهم بنور القمر ، فكيف يكون ابوه هو القمر وامه الشمس ، بل نور القمر تابع لنور الشمس فالخير الذي عند امه هو من أثر الخير الذي عند أبيه يعقوب عليه السلام ، ونور الشمس يحتاجه الناس كل يوم ونور القمر يستغنون عنه أياما فناسب ذلك المعنى ان نور النبوة يحتاج إليه على الدوام والنور الذي عند أهل الفضل والعلم من أهل بيتهم يستغنى عنه بغيره احيانا ويقوم مقامه ، فالمعاني المناسبة في ان الشمس اباه والقمر امه اكثر بكثير من العكس ، والله اعلم .

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى الماء عليها، وإذا أخصبت السنة سمنت، وإذا أجدبت صارت عجافًا، وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر، وفي الجدب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض .

ومنها : ما فيها من الدلالة على صحة نبوة محمد ﷺ؛ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساءً، وهو أميّ لا يخط ولا يقرأ وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

ومنها : أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ .

ومنها : أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ .

ومنها : أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم وحصل لهم ما حصل له بسببه كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العزّ والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف .

ومنها : أن العدل مطلوب في كل الأمور، لاسيما في معاملة السلطان رعيته وما دونه حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدّم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيهم (١) .

---

(١) الاستدلال على لزوم العدل بين الأولاد بان الاخلال به في تقديم يعقوب يوسف في المحبة هو سبب اختلال الأحوال وجرى ما جرى استدلال غير صحيح بالمرة فالواجب العدل في العطية أما الحب فهو تابع للصفات والأعمال وحق ليعقوب ان يقدم يوسف فهل يشك في ذلك من ذاق طعم القصة وعلم صفات يوسف وقد اجتباه ربه واصطفاه فكيف لا يحبه ابوه اكثر واما فساد الأحوال فإنما وقع من الجهل والحرص والحسد الذي كان عليه إخوة يوسف لا في إيثار يعقوب ليوسف وكيف يجوز ان ينسب إيثار يؤدي إلى فساد واختلال إلى نبي معصوم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وما عاتبه الله ولا ذمه قط على ذلك ولو كان ذنبًا لتاب منه ، وراجع ما ذكرناه عند قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾ تجد فيه الكفاية إن شاء الله .

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص، والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما طال البحث، حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب وآثارة التابعة والسابقة واللاحقة .

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه فالله خير الراحمين .

ولهذا - في أصح الأقوال (١) - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة .

ومنها: ما منّ الله به على يوسف عليه السلام من الحلم، والعلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوًا بادرهم به، وتم ذلك بأنه لا يُثرب عليهم ولا يعيرهم به ثم بره العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق .

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من

---

(١) راجع ما ذكرناه من ترجيح عدم نبوتهم في ص (٣٢٤)

ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لمّا اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضًا، وقال قائل منهم: ﴿ **لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ** ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير .

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعًا حرامًا، لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلامًا رقيقًا، وسماه الله شراءً، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم (١) .

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضًا من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توحدها(٢) بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة .

ومنها: أن الهمّ الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه لله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهم داعي من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي

---

(١) الاستدلال على صحة بيع ما لم يعلم حقيقة مالكه لتداول الأيدي له بالقصة فيه نظر، فإن بيع يوسف كان حرامًا باطلاً قطعًا، وإنما سماه الله شراء في قوله: ﴿ **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ** ﴾ لواقع الحال حتى ولو كان باطلاً، كما تقول بيع الخمر حرام وباطل فتسميته بيعًا لا يدل على صحته، ولذا لم يحتج يوسف عند خروجه من السجن إلى عتقه لأنه حر أصلاً، وجريان الرق عليه كان ظلمًا وعدوانًا ممن علمه أو تسبب فيه أو رضي به، فلو ان رجلاً علم أن رقيقه ومملوكه كان قد بيع ظلمًا وهو حر لوجب عليه فورًا إطلاقه وعدم استخدامه فليس برقيق عنده ولا عند غيره، وإن كان لا يلزمه قبول خبر عبده بغير بينة لكنه لو صدقه للزمه إطلاقه، وما وقع من عزيز مصر وغيره لا دليل فيه إذ هم كفار، واقل احوالهم ظلمة، ولا إقرار في القرآن على فعلهم، وإن كان أصل المسألة التي ذكرها الشيخ صحيحًا وهو ان الشيء المتداول بين الأيدي ولم يُعلم انه كان على غير الشرع انه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء . . . إلى آخرها، وإنما الكلام على صحة الاستدلال على ذلك بالقصة، والله اعلم .

(٢) توحدها يعني انفرادها وخلوتها به .

النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**» (١) وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزمًا، ربما اقترن به الفعل .

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصًا لله في جميع أموره فإن الله يدفع ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ على قراءة من قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء .

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفرَّ منه ويهرب غاية ما يمكنه، وليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها فرَّ هاربًا، يطلب الباب ليتخلص من شرها .

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الإشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، وإذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجارٌ وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قدّ القميص، واستدل بقدّه من دبره على صدق يوسف وكذبها (٢) .

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على

---

(١) صحيح : سبق تخريجه ص (٦٦) .

(٢) راجع ما ذكرناه من العمل بالقرائن عند هذه الآية ، وقد قدمنا ان الراجح ان القرائن تستعمل للوصول إلى الاعتراف ، لا انها يقضى بها مطلقًا في كل الأحوال بلا بينة ولا اعتراف والتوسع في الحكم بالقرائن المجردة يفتح أبوابًا من المفاسد عديدة لذا لا يقول به عامة العلماء .

الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصًا إذا كان معروفًا بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً، فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه ولهذا سمى الله هذا الحاكم شاهداً فقال: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لُمْنَها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾، وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة من المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببرائته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾، وقالت بعد ذلك: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾، وقالت النسوة: ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين – إما فعل معصية وإما عقوبة دنيوية – أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته لقول يوسف عليه السلام: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر،

وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصيةً ضارًا لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية في الشدة، فيوسف عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنّا فيه الظن الحسن، وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوقين لتعبيرها عنده، رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما، ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبيّن فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه .

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد، أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف – لما سأله الفتيان عن الرؤيا – قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له .

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناجٍ من الفتيين: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ .

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف

عليه السلام قد قال ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف، أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلاً مستفتيًا عن تلك الرؤيا فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًا من كل وجه .

ومنها : أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلّهم – مع ذلك – على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته .

ومنها : أنه لا يُلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن .

ومنها : فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية ؛ وأنه أفضل من الصورة ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف – بسبب جماله – حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته .

ومنها : أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرائي داخل في الفتوى لقوله للفتيين : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ، وقال الملك : ﴿ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ ﴾ ، وقال الفتى ليوسف : ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ . . . ﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم .

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان بما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾، وكذلك لا تذم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله؛ فبهذه الأمور ينهى عن طلبها والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿**وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق – إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم – لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته: ﴿**أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ**﴾.

ومنها : أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أن الذئب أكله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾، وقال لهم في الأمر الآخر : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ فهم في الأخيرة – وإن لم يكونوا مفرطين – فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج .

ومنها : أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع بل جائز، وإن كان لا يقع شئ إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لبنيه : ﴿ لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ .

ومنها : جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التَحَيُّلْ على إسقاط واجب أو فعل محرم .

ومنها : أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يحب أن يطلع عليه أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه، موهمًا أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ ولم يقل (من سرق متاعنا)، بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبينت الحال .

ومنها : أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه، إما بمشاهدة أو خبر من يثق به وتطمئن إليه النفس لقولهم : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ .

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة لا تقصر عن خمس عشرة سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، ثم ازداد الأمر شدة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفّى بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾، فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى (١) ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجةً واضطراراً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر، ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد – بذلك – إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر أو نحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾، ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب، لقوله: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

---

(١) يعني أشد.

ومنها : أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولى ليحدث لذلك شكرًا كلما ذكرها لقول يوسف عليه السلام : ﴿ **وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ** ﴾ .

ومنها : لطف الله العظيم بيوسف حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات .

ومنها : أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائمًا في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة لقول يوسف عليه السلام : ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ .

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك .

فنسأله تعالى علمًا نافعًا، وعملاً متقبلاً، إنه جواد كريم » (١) .

* * *

---

(١) عن كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي — رحمه الله تعالى — ، ص (٤٠٧ - ٤١٢) .

الخاتمة

وبعد . . .

فبفضل الله ورحمته، تم ما أردت جمعه من المعاني والفوائد من هذه القصة العظيمة والسورة الكريمة، والتي هزت وجداني، وتهز وجدان كل مسلم ومسلمة، وما أراني إلا نقبت قشرة صغيرة عن لب عميق، كلما تدبر القارئ وتفهم السامع متضرعًا لمولاه، سائلاً منه النعمة والفضل، كلما وجد المزيد، وذاق حلاوة القرآن وازداد يقينًا أنه كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد .

اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي .

اللهم علمني منه ما جهلت، وذكرني منه ما نسيت، وارزقني تلاوته آناء اليل وآناء النهار، على الوجه الذي يرضيك عني .

اللهم ما كان من حق وصواب فيما كتبت، فأنت المنان به، ومنك الفضل والرحمة، فتقبله مني واجعله خالصًا لوجهك، ونورًا لي في حياتي وفي قبري ويوم القيامة، ونورًا لأهلي وبنيّ وإخواني وأحبابي والمسلمين .

اللهم ما كان من خطأ وزلل في ما كتبت، فمني ومن الشيطان، وأنت الغفور الرحيم، أرحم الراحمين، خير الغافرين، الودود الكريم، غافر الذنب وقابل التوب، الستير، فأسألك بعفوك ورحمتك، وفضلك وعزتك، وحكمتك

وقدرتك، أن تغفر لي مغفرة من عندك وأن ترحمني من لدنك رحمة تغنني بها عن رحمة من سواك .

اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أن ترزقني مرافقة نبيك وخليلك الذي اصطفيته واجتبيته، وفضلته على جميع خلقك، واخترته لتنزل على قلبه كتابك الكريم، عبدك ورسولك محمد – صلى الله عليه وآله وسلم –، وأن ترزقني مرافقة جميع أنبيائك ورسلك، وخاصة إبراهيم وموسى وعيسى ونوح وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف – عليهم الصلاة والسلام –، ومرافقة الصديقين والشهداء والصالحين، في الفردوس الأعلى بغير حساب ولا عذاب، أسألك ذلك لنفسي ووالدَيَّ وأهلي وذريتي وإخواني وأخواتي وأحبابي، في من اجتبيت من عبادك الصالحين .

اللهم اجز من أعان على كتابتها ونشرها خير الجزاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

ياسر برهامي

حفظه الله

فهرس

الموضـــوع رقم الصفحة
■ مقدمة ٥
■ تفسير البسملة ٧
■ الحروف المقطعة في أوائل السور ١٠
■ بين يدي القصة ١٢
■ أحسن القصص ١٤
■ رؤيا يوسف عليه السلام ١٧
■ التربية الإيمانية وأثرها ٢٥
■ عبر وعظات ٣٢
■ المؤامرة الخبيثة ٣٣
■ الوعد الكاذب ٤١
■ حزن يعقوب عليه السلام ٤٣
■ يوسف عليه السلام في محنة الجب ٤٦
■ مكر وخداع وكذب ٤٩
■ الصبر الجميل ٥١
■ يوسف عليه السلام يباع رقيقًا ٥٣
■ تمكين في بيت العزيز ٥٦
■ محنة جديدة ٦٣
■ عفة وإخلاص ٦٩
■ الفرار من المعصية ٧٥
■ سلبية وضعف ٨٠
■ كيد نسائي ٨٥
■ حكم جائر وقرار ظالم ١٠٢
■ يوسف عليه السلام في منحة المحنة ١٠٤
■ دعوة إلى الله في كل مكان ١٠٨
■ تأويل رؤيا الفتيين ١٢٠
■ الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل ١٢٢
■ رؤيا الملك وبداية الفرج ١٣١

■ تأويل رؤيا الملك ١٣٥
■ ظهور البراءة ١٣٨
■ الابتلاء بالملك ١٥١
■ التمكين ١٧٧
■ مجيء الإخوة ١٨٠
■ حديث يوسف عليه السلام مع إخوته ١٨٤
■ نكأوا الجرح القديم ١٨٩
■ مسئولية خاصة وميثاق من الله ١٩٤
■ توكل يعقوب عليه السلام ١٩٩
■ لقاء الأخوين بعد غياب السنين ٢٠٥
■ كيد الله ليوسف ٢٠٧
■ نجاح الحيلة ٢١٠
■ مازال الحقد باقيًا ٢١٥
■ محاولات فاشلة ٢٢٠
■ الندم واستشعار الخطيئة ٢٢٢
■ كرب جديد فوق الحزن القديم ٢٢٦
■ رجاء في رحمة الله ٢٣٥
■ انكسار وضعف ٢٣٧
■ صفح وعفو ٢٤٠
■ بشرى الفرج ٢٤٥
■ لقاء الأحبة ٢٥٠
■ دعاء وتضرع ٢٥٩
■ إعجاز القرآن ودلائل النبوة ٢٦٤
■ التحذير من الشرك ٢٨٥
■ التحذير من الأمن من مكر الله ٢٩٩
■ من فقه الدعوة إلى الله ٣٠١
■ العبرة من سيَر الأولين ٣٠٩
■ النصر والفرج بعد الشدة واليأس ٣٢٣
■ القرآن هدى ورحمة ٣٣٥
■ الخاتمة ٣٤٩
■ الفهرس ٣٥١

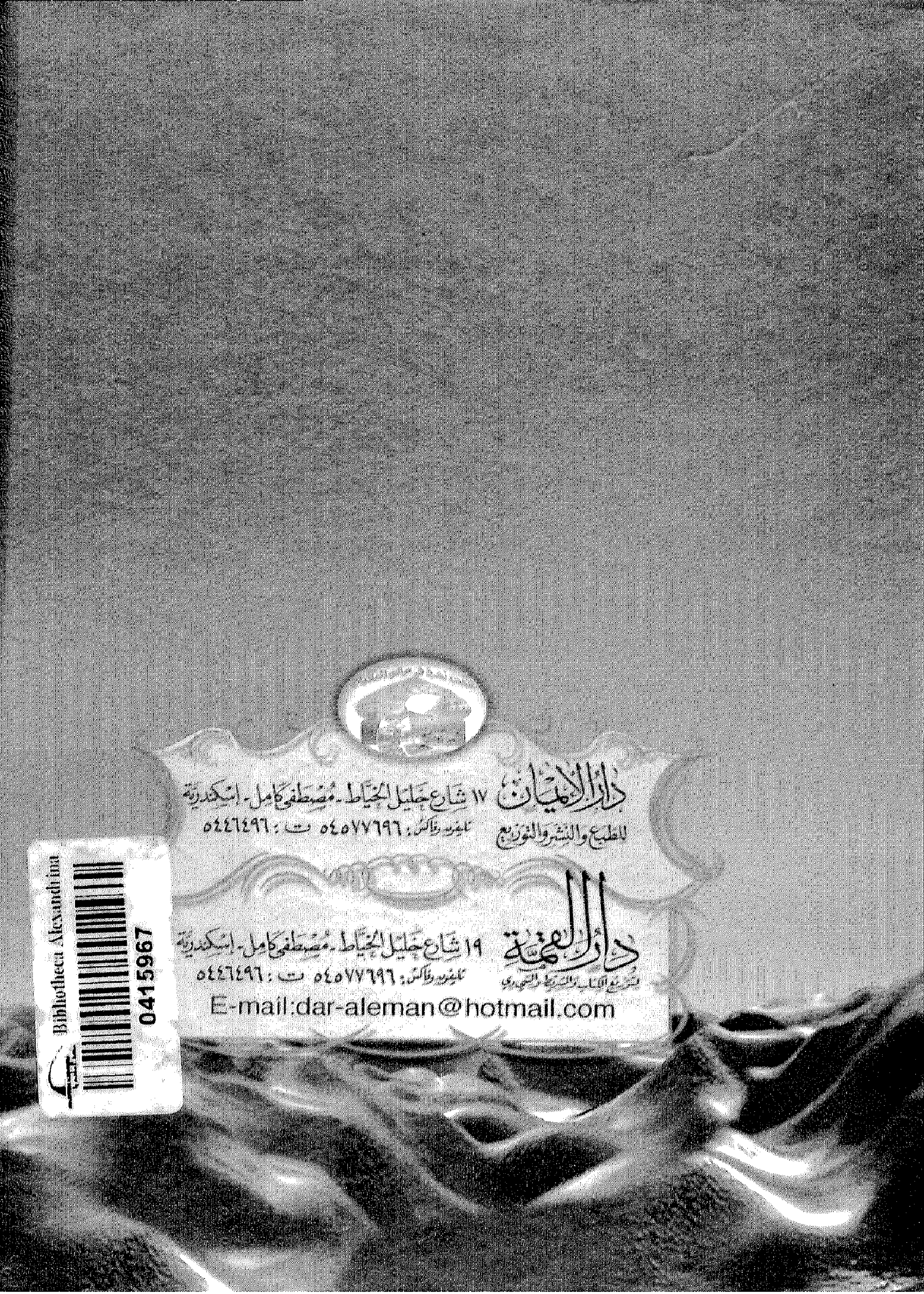

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس : ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت : ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة
لنشر الكتاب الإسلامي والتوزيع
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس : ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت : ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

Bibliotheca Alexandrina
0415967